بولس والمسيحية

تأليف

الدكتور
محمد أبو الغيط الفرت
أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد
بجامعة الأزهر

الطبعة الأولى
١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م

دار الطباعة المحمدية
٣ درب الأتراك بالأزهر

Fart, Muhammad

بولس والمسيحية

تأليف

الدكتور
محمد أبو الغيط الفرت
أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد
بجامعة الأزهر

الطبعة الأولى
١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م

دار الطباعة المحمدية
٣ درب الأتراك بالأزهر





مقدمة

إن الحمد لله عز وجل ، نحمده ونستعين به ونستغفره ، ونتوب إليه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، إنه من يهدى الله فلا مضل له ومن يضلل الله فما له من هاد .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين هادياً وبشيراً وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين الذين هم كالنجوم الزاهرة من اقتدى بهم فقد هدى إلى صراط مستقيم .

أما بعد : فإن قضية الإيمان بالله الخالق الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد هى مسئولية الإنسان الشخصية أمام ربه عزوجل ولذلك ينبغى على الإنسان أن ينظر فيما يعتقد ، لأنه يتعلق فى مدى صحة عقيدته نجاته من عقاب ربه سواء فى الدنيا أو فى الآخرة ولايفيد الإنسان أن يتعصب أو يتبع عن وراثة دينا لا يتفق مع منطق العقل السليم ، فإن الله قد وهب الإنسان عقلا يهتدى به – بعد انطلاقه من عقال التعصب والوراثة – إلى طريق الحق والصراط المستقيم .

وخير مايستعمل العقل - وهو أعظم هدية أعطيت له من ربه - أن يستعمل فى النظر فى أقدس قضية خلق الإنسان من أجلها وهى قضية التعرف على ربه سبحانه وتعالى ، ولم يحرم دين من الأديان السماوية الحقة نظر الإنسان فى أصوله هذا الدين وعقائده نظراً يقتنع من خلاله أن مايعتقده صحيح لاشائبة فيه ، وأنه دين يحقق النجاة والخلاص أمام الله رب العالمين .

والإسلام هو سيد الأديان فى هذا المضمار ، فإن رب العالمين أمر نبيه محمداً فى قرآنه بقوله : (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى(١) . .) فالرسول الكريم لم يدع الناس إلى عقيدة مبهمة ، ولم يستعبدهم لمعبود غير كامل الألوهية ، أو مجهول غير مفهوم !! وإنما دعاهم إلى الله عن طريق النظر فى كنه الإنسان ومافيه من معجزات الخلق المؤدية إلى صميم اليقين فى مثل قوله تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون(٢)) ثم النظر فى ملكوت الله فى كافة نواحيه الممكنة (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون(٣))

وإذا كان الإنسان ذلك الكائن الأصغر قد احتوى معجزات الخلق فإن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لايعلمون ، والقرآن قد أمر الناس وأرشدهم إلى التحرز من تبعية الآباء والأجداد فى هذه القضية ، لأن رب العباد يعلم مدى التعصب لموروثات الآباء والأجداد فقال عز وجل (وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون(٤) وقال سبحانه وتعالى (بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون وكذلك ماأرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون(٥)) .

وكان رد القرآن على تعنت من تمسك بموروثات الآباء بقوله (لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين(٦)) .

---

(١) يوسف ١٠٨ (٢) الذاريات ٢١

(٣) يونس (٤) البقرة ١٧٠

(٥) الزخرف ٢٢ ، ٢٣ (٦) الأنبياء ٥٤

لأن صراط الله سوى مستقيم لاعوج فيه ولا أمتا أما طريق غيره فهو سبيل الشيطان الرجيم كما قال سبحانه (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله(١) .

واتباع السبل التى هى من الشيطان ليس من الإسلام فى شىء (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء)(٢) .

والإسلام ليس بدعا من الأديان كما أن محمداً ليس بدعا من الرسل حين يدعو الناس إلى إعادة النظر فيما انحرف فيه البشر من عقائد ، فإن عيسى عليه السلام حين جاء دعا من أرسل إليهم إلى النظر فى تصحيح مفاهيم الشريعة التى انحرف عن صحيحها بنو إسرائيل ثم أضاف منهجاً جديداً فى الأخلاق كانت الرسالة اليهودية فى حاجة ماسة إليه مع ماصحب هذا المنهج من تعديل لبعض ما كان مقرراً عليهم من قبل .

ورسول الله موسى عليه السلام حين جاء دعا من أرسل إليهم إلى معرفة الله ثم بلغهم عن الله شريعة يعملوا بها لم تكن مقررة عليهم ممن سبقه من الأنبياء كما بلغهم ما يجب اعتقاده فى الله رب العالمين ، وأطاعوا وأذعنوا واستجابوا لرسالته إلا الخارجين والمارقين كشأن كل أمة يبعث فيها رسول فإنه يتبعه قوم ويخالفه آخرون .

ومحمد رسول الله - ﷺ - أحد هؤلاء الرسل جميعاً جاء يبين للناس ماهم فيه من انحراف عن الصراط المستقيم ومنهم النصارى أتباع المسيح — عليه السلام — دعاهم إلى إعادة النظر فيما يقيمون عليه من اعتقاد فى المسيح وفى رب المسيح ، ثم أقام البراهين الكاملة الصحيحة الصادقة والداعية إلى

---

(١) الأنعام ١٥٣ .

(٢) الأنعام ١٥٨ .

النظر فيها لينتهوا — عن بصيرة — إلى تصحيح العقيدة عن المسيح ورسالة المسيح ، فمثلا فى مجال الاستدلال على بشرية عيسى وأمه وإبطال القول بألوهيتهما يقول تعالى : « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل »(١) .

وهكذا تكون دعوة القرآن ، إنها تبنى على النظر الصحيح المؤدى إلى اليقين (انظر كيف نبين لهم الآيات) أى انظر كيف نبين لهم أن من يأكل الطعام ويشرب الشراب يتبعه بالضرورة إخراج فضلات لا يليق أن تلتصق بإله ، ثم يأمر بإعادة النظر فى حال من هو كذلك ، والنظر فى هذه الحالة ينتج اليقين لأنه بنى على المشاهدة ، ولكن المدعو إلى هذا التصحيح فى المسيح يصر على تكذيب نتيجة بدهية سبيلها المشاهدة وهى بديهة قوية فى دلالتها (ثم انظر أنى يؤفكون) .

وهكذا لم يندد القرآن ولم ينقض من عقائدهم إلا بالدليل اليقينى الذى هو غاية النظر العقلى المجرد عن الهوى والمؤثرات البيئية :

وربما يمكننا القول بأن المسيحيين قبل نزول القرآن معذورون فى عقيدتهم فى الله والمسيح والقديسين ، لأنهم إن راموا تصحيحاً لعقائدهم لم يستطيعوا ، حيث إنهم ورثوا تراثا موضوعا بفعل البشر لا بتنزيل من السماء فالتنزيل السماوى ، الذى نزل على عيسى - عليه السلام - لم يكن باقياً

---

(١) المائدة ٧٥ - ٧٧ .

فى رق منشور حتى إذا رجع إليه أتباعه عرفوا زيف الموضوعات البشرية بالقياس إلى الرصيد السماوى الثابت المكتوب والمحفوظ كما هو الحال فى كتاب الإسلام العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه الذى هو تنزيل من حكيم حميد .

(وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون)(١) .

إن أتباع المسيح — عليه السلام — لم يروا إلا كتبا دعيت مقدسة ، وما ندرى ما وجه تقديسها مادام واضعوها بشراً غير معصومين لأن العصمة للأنبياء وحدهم .

وفى غالب الأمور تعرف الحقائق بأضدادها ، فإن الباطل يدرك إذا ما عرف الحق ليمكن المقارنة ، وهنا يزهق الباطل ويبقى الحق ، أما وأن المرء لم ير إلا الباطل ويقدم له على أنه الحق فإنه يكون معذوراً فى قبوله الزيف والباطل وإن كان غير معذور فى إهماله عقله - ويمكن تصوير من هو محجوب عن إدراك الحق كمن يخلق فى كهف أو ماء لا يعرف عن الوجود حوله إلا مافى هذا الكهف أو الماء من كائنات فإنه لايكاد يصدق أن خارج الكهف أو الماء حقائق أخرى جديرة بالتعرف عليها أو التصديق بوجودها .

وكذلك نجد أتباع المسيحية قد حجبت عن النظر عقولهم إلا فيما ورثوه من كتب ورسائل من وضع البشر ومن ذكرياتهم عن المسيح ورسالته .

ومن الحق الذى لاجدال فيه أنه لولا مجىء نبى الإسلام محمد - ﷺ

---

(١) الأنعام ١٥٥

وتصريح القرآن الكريم عن حقيقة المسيح ورسالته لما تمكن أحد أن يتعرف على حقيقة مريم والمسيح وما يتعلق بهما من قضايا وحقائق هي في الحقيقة إرادة لله مقصودة تتبلور في معجزة خلق المسيح ورسالته السامية .

وحين يكشف القرآن لنا هذه الحقائق يدعونا كما يدعو أتباع المسيحية في الوقت نفسه إلى تدبر ما يقيمون عليه من عقائد وشعائر وإعادة النظر فيما ورثوه وكانوا فيه معذورين لينتهوا بعد التحقيق والتمحيص إلى تصحيح العقيدة في المسيح وأمه والقديسين ، شأنه في ذلك شأن كل رسول يدعو من يرسل إليهم إلا التخلي عن زيف ما هم مقيمون عليه والتحلي بما هو آت إليهم واستبدال الباطل بالحق لعلهم يهتدون ، وإن الكتاب مازال قائما يصرخ في الآذان ويهز القلوب بأن ينتهوا خيراً لهم إن كانوا يعلمون .

وإلى القارىء أبث بعض الحقائق عن المسيح عليه السلام من بعض ما ورد عنه في القرآن الكريم :

١ — بين لنا قصة نزر أم مريم مافى بطنها محرراً لخدمة الهيكل وكفالة نبي الله زكريا لها ورزقها الرباني في الهيكل مما نتج عنه شوق نبي الله ذكريا إلى الذرية لتحمل من بعده رسالة النبوة(١)

٢ — اصطفاء الله مريم على نساء العالمين وتطهيرها من الدنس والإثم وتبتلها مع العابدين(٢) . حتى استحقت أن تكون صاحبة النعمة والهبة الآلهية وذلك بحملها بعيس كلمة الله وروح منه .

٣ — كيفية الحمل بعيسى والمحاورة التي جرت بين مريم وبين الملك المبشر لها بغلام له في المستقبل شأن كبير(٣)

---

(١) آل عمران ٣٥ - ٣٨ .

(٢) آل عمران ٤٢ ، ٤٣ .

(٣) آل عمران ٤٥ - ٥٨ :

٤ — كيفية الولادة ومكانها وملابساتها واقعياً ونفسياً(١).

٥ — التهمة التى واجهت مريم وموقفها من الدفاع وتبرئة الوليد لها(٢).

٦ — بيان حقيقة خلقه عليه السلام(٣).

٧ — دعوة القرآن الكريم إلى نبذ العقيدة الحالية فى المسيح وتصحيحه العقيدة فيه(٤).

٨ — معجزات المسيح ووظيفة رسالته(٥).

٩ — نهاية المسيح على الأرض فى مجيئه الأول(٦).

١٠ — دفاعه عن نفسه وشهادته على قومه يوم القيامة(٧).

ولما عرفت هذه الحقائق عن المسيح وأمه عليهما السلام هالنى ما عرفته فى الديانة المسيحية مخالفاً لهذه الحقائق، فقرأت لأعرف الدواعى التى أدت إلى هذه الحال فى هذه الديانة ومخالفتها لما أثبته القرآن عنها، ومكثت على هذا الحال فترة ليست بالقصيرة فانتهيت أخيراً إلى أن هناك من قام بوضع البذور الأولى لهذه العقائد ثم أخذت بعد ذلك طوراً آخر من فعل

---

(١) مريم ٢٢ — ٢٦. (٢) مريم ٢٨ — ٣٣.

(٣) آل عمران ٥٩ والنساء ١٧٢.

(٤) النساء ١٧ والمائدة ١٧، ٧٢، ٧٣.

(٥) آل عمران ٤٩ — ٥١.

(٦) آل عمران ٥٥ والنساء ٥٧، ٥٨.

(٧) المائدة ١١٦ — ١١٧.

المجامع المقدسة وانتهيت أيضاً إلى أن هذا التشكيل قد تركب من ركام تجمع فى زمن استغرق أربعة قرون تقريباً بعد عيسى عليه السلام .

ولما كان أهم الركائز فى إقامة هذه الديانة هو ما وضعه القديس بولس رسول المسيحية الممجد من أسس تناولتها من بعده المجامع المقدسة بالنماء ثم الدفاع عن هذه الأسس دفاع المستميت فى تحقيق مايصبوا إليه مستعملا كل مايستطيع استعماله من أجل تثبيت مبادئه.. لما كان الأمر كذلك حدا الشوق أن أتتبع حياة القديس بولس وسلوكه فى تشكيل هذه العقائد فغصت خلال الرسائل أولا لأتعرف على كيفية نشاطه فى دعوته وهل هناك من أسهم معه فى ذلك أم أنه تحمل عبء مشاق الدعوة إلى ذلك ، ثم تابعته فى بعض المؤلفات المسيحية التى تعرضت لشرح حياته الرسولية وغير الرسولية حتى نهايته .

ثم أردت أن أقدم للقارىء المسيحى قبل المسلم الظروف والملابسات للمكونات الأولى لنشأة هذه الديانة عسى الله أن يفتح القلوب الغلف إلى معرفة الحق الذى يجب التواصى به فقدمت هذا الكتاب حديثاً عن نشأة بولس وثقافته — كغيرى من الكاتبين — وبينت معالم البيئة الاجتماعية التى كان يعيشها عامة والدينية خاصة التى أمكنته من انطلاق غير محدود فى دعوته ، وكيف أنه تعشق الانتقال إلى المسيحية لكن بهدف غير ما كان يهدف إليه المسيح — عليه السلام — ثم بينت طبيعة الدعوة التى دعا إليها وموقفه من دعوته السابقة خاصة فى جانبها المتشدد ، ثم نشاطه التبشيرى من خلال رسائله كما تبين اتفاقه مع المسيح وما جاء فى التوراة وكتب الأنبياء فى الدعوة إلى الملكوت الربانى ورأيت أن ذلك يتفق مع مجىء المسيح الثانى فى آخر الزمان ليحكم بشريعة القرآن ، فربما يلتقى القرآن بالتوراة والأنجيل فى تحقيق

وقوع هذا الملكوت عند نزول عيسى عليه السلام قبيل انقضاء العالم وحينئذ تبنى عليه أعظم قضايا الإسلام .

والله أسأل أن ينفع به كل قارىء بقدر مافيه من إخلاص للدعوة إلى الله عز وجل والله من رواء القصد وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة فى :
٢٤ ص ذى الحجة سنة ١٣٩٩ هـ
١٤ من نوفمبر سنة ١٩٧٩م

المؤلف
الدكتور
محمد أبو الغيط الفرت

الباب الأول

حياة بولس وأسباب تحوله الدينى

ويشتمل على الفصول الآتية

الفصل الأول : نشأته

الفصل الثانى : الحياة الدينية فى الشرق الآسيوى

الفصل الثالث : قصة تحوله إلى المسيحية

الفصل الأول

نشأة بولس وثقافته

يعتقد الباحثون أنه ليس هناك ما يعتمدون عليه فى تحصيل المعلومات عن (بولس) سوى سفر (أعمال الرسل)(١) إذ يعتبر فى نظرهم أهم مايعتمد عليه من المراجع عند كتابة تاريخ الفترة من سنة ٣٠ — ٩٥ م فهو يحكى آخر لقاءات المسيح بأتباعه كما يحكى أعمال الحواريين بعد المسيح وأعمال الرسل السبعين الذين بشروا بالدعوة المسيحية لليهود فى البلاد اليهودية واليونانية ،

---

(١) يقول ول ديورانت فى قصة الحضارة : المتفق عليه بوجه عام لدى المحققين أن سفر (أعمال الرسل) ، والأنجيل الثالث من وضع مؤلف واحد ، ولكن ليس هناك مايماثل هذا الأجماع على أن مؤلف السفرين هو (لوقا) صديق بطرس الذى ليس من الحواريين — بل ليس من اليهود — وإذا كان سفر الأعمال لم يرد فيه شىء عن موت بولس فإن النسخة الأصلية منه تكون قد ألفت حوالى سنة ٦٣ م ... ولكن المرجح أن الكتاب قد ضمت إليه أجزاء كتبها مؤلف آخر جاء بعد مؤلفه الأول ، ويكثر فى هذا السفر ذكر خوارق الطبيعة ، ولكن قصته الأساسية يمكن اعتبارها تاريخا صحيحاً . وقد ضمت فى القرن الثانى عدة (أعمال) و(رسائل)مختلفة مشكوك فيها حذفت من الكتاب المقدس تحتوى على عدد من القصص الخرافية تروى حياة الرسل بعد المسيح ، وكانت هذه (الأعمال) بمثابة الروايات الخيالية التاريخية لذلك العصر ... وقد رفضتها الكنيسة المسيحية ولكن أتقياء المسيحية آمنوا بها وخلطوها خلطا متزايدا بالتاريخ الصحيح . راجع قصة الحضارة م٣ ح ٣ ص ٢٤١ .

بل يشتمل أيضاً التبشير بالدعوة إلى غير اليهود فى بلاد جاس خلالها القديس بولس من بعد المسيح .

ومع ذلك فإنه يمكن القول بأننا نستطيع أن تستمد أهم معلوماتنا أيضاً عن القديس بولس من رسائله المعزوة إليه والمسجلة ضمن أسفار العهد الجديد .

نشأته :

ولد بولس فى (طرسوس) التابعة لأقليم قليقية(١) بعد عشر سنين من الميلاد (٢) تقريبا .

وكان أبوه يهوديا فريسيـــا وكان الأثنان مواطنين يتمتعان بحق المواطنة الرمانية .

ويبدو أن إسم (بولس) هذا يونانى يرادف فى اللغة العربية اسم (شاول) وربما رجح هذا أن الأسمين كانا يطلقان عليه منذ حداثته .

ولمـا شب عن الطوق تعلم صنع الخيام فقد كانت حرفة أبيه (٣) .

مدى أهمية طرسوس :

أما (طرسوس) مولده وموطنه فكانت بلدة يونانية ذات نشاط تجارى وثقافى كبير ، إذ تقع على نهاية حدود إقليم قليقية ، وتعتبر هذه

---

(١) أعمال ٢٢ : ٣ .

(٢) قصة الحضارة حـ ٣ م ٣ ص ٢٤٩ .

(٣) أعمال ١٨ : ٣ .

المدينة مفتتح الدخول إلى هذا الاقليم ، وكانت تعتبر فى الوقت نفسه حلقة الاتصال بين آسيا الصغرى والشام . كما كانت ملتقى الطرق التجارية الهامة التى تجلب إليها المدد الهائل غير المنقطع من العقائد والأفكار والتأثيرات المختلفة فى آن واحد من اليونان ، وإيطاليا ، وفريجيا ، والشام ، وقبرص وفينيقيا ، ومصر .

وملوك الشام كانوا يحاولون أن يصبغوها بالصبغة الإغريقية ، غير أنها ظلت على أقل تقدير مدينة شرقية فى مجال المعتقدات السائدة ، وإن كانت المدارس اليونانية قد انتشرت فيها وازدهرت .

وفى رحاب طرسوس قام ما يسمى اليوم بالجامعة ، ويقول المؤرخ الجغرافى (استربوت) الذى كان معاصرا للمسيح عن تلك الجامعة ، أنها كانت سبباً فى شهرة هذه المدينة فى العالم اليونانى ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالدراسات الفلسفية ، ويكاد يتفق المحققون على أن أساتذة هذه الدراسات ينتمون إلى المذهب الرواقى .

ويبدو من طريقة بث مذهبهم أنهم لم يكونوا يكتفون بنشره بين طلبتهم الذين يتابعون حلقاتهم ، بل نشطوا فى نشر مبادئه الأساسية وقضاياه المهمة المثيرة على نطاق أشمل فى شبه (حملة تبشيرية) ذات صبغة شعبية تتفق وروح الفكر عند الجماهير .

وهنا يكمن مفتاح الشخصية لبولس ، إذ فى الوسع أن نفسر الحقيقة التى جعلته يلم تماما بالمبادىء الأولى للفلسفة الرواقية والأساليب الخطابية الرائقة لدى المفكرين اليونانيين ، مع الترجيح أنه لم يكن ضمن الرواد الدارسين فى جامعة طرسوس . كما لم يكن ضمن الدارسين بالقصد للفلسفة الرواقية وإن كانت فى متناوله فى مدارس وطنه .

ويكفى لتأكيد إلمامه بالمبادىء الأولى للفلسفة الرواقية أنه عاش كل

سنى شبابه فى هذا الجو المشبع بالتراث اليونانى على أيدى أساتذة الفكر الفلسفى الرواقى ، وكانوا يختصون بالجمع بين التفكير الفلسفى والأسلوب الخطابى(١) .

ثقافتـــه :

إذا حاولنا القيام بدراسة حياة بولس الثقافية فإننا نجد هناك اتجاهين لفهم هذه الحقيقة لدى القديس بولس ، فهناك من المؤرخين من يذهب إلى أنه تلقى تعليمه الدينى فى القدس على يد أشهر علماء الناموس فى عصره ، وفى ذلك يقول بولس نفسه بأنه (تعلم عند رجلى غمالائيل على تحقيق الناموس الأبوى الدقيق)(٢) .

ويعلق على ذلك ول ديورانت إذ يقول : إن بولس أفاد كثيرا من أستاذه ، فكان مجادلا سوفسطائيا . ذا فلسفة دينية وأخلاقية لا تبعد كثيرا عن الرواقية التى كانت بيئتها المدرسية فى طرسوس نفسها ، ولكنه مع ذلك كان يتهاون فى تعليم الناموس بما يتلاءم مع ضعف النفس البشرية بما يجعل تعاليم اليهودية من الكتاب المقدس سهلة متسامحة بعض الشيء ، وتلك كانت طريقة أستاذه (غمالائيل) فقد كان يفسر الناموس تفسيرا أليفا ، كما كان جدليا بارعا (٣) .

وهذا القول من ول ديورانت يفيد أن بولس نشأ فى القدس بجوار

---

(١) راجع المسيحية نشأتها وتطورها لشارل جينيبير ص ٦٨ .

(٢) أع ٢٢ : ٣ .

(٣) قصة الحضارة جـ ٣م ص ٣٠٢٥ .

(غمالائيل) ومعنى ذلك أن دراسته الدينية كانت فى مدرسة من أشهر المدارس اليهودية فى عصره.

وهذا قول لا نستطيع نفيه بصورة قاطعة لأن هناك اتجاها آخر لدى بعض الباحثين يقرر أنه تعلم فى مجمع مدينته الدينى مستبعدا أن يكون من تلاميذ كهنة فلسطين ، لأنه قد وصل به الحال إلى أنه تجاهل وأنكر أساتذته فى طور من أطوار حياته .

وهذا الفريق من الباحثين يرى أنه قد أحسن التعبير عن الروح اليهودية التى كانت تسود — كما بدا لهم — معابد المهجر المتأثرة بالفكر اليونانى كما يغلب على ظنهم أنه تلقى فعلا العلوم الخاصة بأصول اليهودية وأتى عليها ، وتدرج فى الدراسات الدينية إلى أبعد حدودها ، ولكن فى غير القدس من المدن ، فلم تكن فلسطين هى الموطن الوحيد للعلماء اليهود .

ونحن نعلم علم اليقين أن منهم من كان يقيم أيضاً فى الاسكندرية ، كما أن منهم من كان يقيم فى أنطاكية . والدلائل عند هـــذا الفريق من الباحثين تشير إلى أن بولس كان قد أكمل دراساته بهذه المدينة الأخيرة .. وقد يستند هذا الفريق فى رأيه إلى ماغلب على ظنه أن بولس كان يعتمد على الترجمة اليونانية للتوراة وهى المساة بالسبعينية (١) ، وذلك يدعو إلى الاعتقاد بأن بولس لم يدرس النصوص المقدسة فى مدينة القدس ، وإنما

---

(١) كان يهود المهجر يعتبرون أن النص (السبعينى) منزل تماما كالنص العبرى بلا فارق ، وتلك نظرية فرضها عليهم حرصهم الدينى ، ويعتمدون فى ذلك على مايرونه من التشابه التام بين اثنين وسبعين ترجمة للنص قام بها الاثنان وسبعون مترجما ، وهذا يدل فى نظرهم على أن هذا التوافق لا يتم إلا بفيض من الله ، وعليه فهو وحى .

كانت دراسته لها فى إحدى المدارس اليهودية فى المهجر وعلى الأخص فى أنطاكية التى لا تبعد عن طرسوس كثيراً ، فقد كانت المركز الفكرى الأكبر لآسيا الصغرى اليونانية ، كما كانت ميدان التلاقى والتجمع لأصحاب المذاهب والمعتقدات المتشابهة أو المختلفة .

ولعله يكون من المستطاع أن نجمع بين الاتجاهين — إن صح ماذهبنا إليه — بقولنا : إن بولس لما فرغ من تعليمه الدينى فى مجتمع مدينته أرسله أبوه إلى أورشليم ليتمم تعليمه فى جامعتها الدينية . وبعبارة أخرى فى مجمعها الديني طلبا لأصول الدين اليهودى ، ثم أكمل دراسته فى أنطاكيه :

ويتفق الباحثون على أن بولس قد صحبته التعاليم اليهودية طوال حياته حتى بعد أن أعلن مسيحيته ، وظل مطبوعا بالطابع اليهودى فى عقله وتفكيره وأخلاقه حتى نهاية حياته رغم إلمامه بقدر لا يستهان به من الثقافة والعلوم اليونانية ، ولولادته بأرض يونانية ، وإن لم يتناولها عن دراسة مقصودة .

غير أنه كان يلم بجوانبها واتجاهاتها رغم أنه لم يدرس الكتب اليونانية فهو لم يتعلم بالقصد إلا اللون الدينى لأنه فريسى متشدد ، إلا أنه كان يتحدث اللغة اليونانية بطلاقة يمكن بها أن يخاطب كل مستمعيه من الأثينيين ؛ فقد كان يكتبها ويتحدث بها منذ نشأته الأولى .

وكان يتردد فى أصداء الجو اليونانى المحيط به فى طرسوس الحديث عن منقذ ينتشل البشرية ، كما كانت علوم اليهود من بنى جنسه تتحدث عن حياة مسيح منتظر .

ومن كل هذه السمات الثقافية المحيطة بالقديس بولس نستطيع القول — وإن كان هذا سابقا لأوانه — بأنه يمكن أن تكون هذه الثقافات والتعاليم الدينية قد أعدته إعدادا تاما تمكنه من إدراك الآمال والتطلعات الدينية

عند يهود المهجر الذين يؤمنون بعيسى كما آمن أيضا به ، وعند المتلمذين عليهم من الطوائف الدينية المختلفة .

جنسيته :

يبدو فى غالب الظن أن اليهودية فى نظر الكثير من المؤرخين جنسية لمن ينتمى إليها دينيا ، ودين لمن ينتمى إليها جنسيا . فإذا قيل ما جنسية (فيلون) مثلا؟ قيل أنه يهودى ، وإذا قيل ما دينه ؟ قيل أيضا يهودى ، والمعنى أن اليهودية دين كما هى جنس وجنس كما هى دين .

ولذلك يعلن بولس عن نفسه بأنه يهودى الجنسية من طائفة الفريسيين كأبيه ، وهى طائفة يهودية متشددة فى الأخذ بالتعاليم ، وهم يعتقدون فى وقوع القيامة أى يؤمنون بالبعث وأن الأبرار سيشاركون المسيح فى ملكه الموعود ، أما الأشرار فإلى الجحيم يساقون ، ويترتب على إعلانه هذا أنه يجوز أن يمثل أمام محكمة الرومان وقضاتها وحكامهم إذا استوجب ذلك .

ويذكر سفر الأعمال أنه أعلن جنسيته هذه فى مناسبة واقعة كانت بين الصدوقيين - وهى طائفة يهودية لا تؤمن بالقيامة ولا الملائكة ولا الأرواح وبين الفريسيين الذين يعتقدون وقوع ذلك وحصوله ، وكان يريد بذلك أن يوقع بين الطائفتين ، ومعنى ذلك أن طائفة الصدوقيين لا يؤمنون ولا يصدقون بحلول الروح القدس على أحد ممن يدعى ذلك ، فهذه هى مناسبة ذلك الاعلان كما أخبر سفر الأعمال(١) .

---

(١) أع ٢٣ : ٦ - ٩ .

وكان بولس لا يتورع أن يعلن خلاف ذلك فى موقف آخر يرى أن يلحقه فيه إيذاء، فنراه حين يقع موقع الإيذاء والهلاك نظير مخالفة يقترفها أو جرم يرتكبه يدعى أنه رومانى الجنسية كيلا تجوز محاكمته وذلك لينجو من الضرب والعقاب.

ولكن المتفق عليه أنه يهودى الجنسية ، وأما ادعاؤه الرومانية فربما كان ذلك للحيلة والنجاة من العقاب ، بل هذا ماكان يرمى إليه ويبتغيه(١).

وإن صح ما نلمحه حسب هذه النصوص من التردد فى المواقف المتضادة فإنه يدل على عدم ثباته على مبدأ يأتى منه مضرة تلحقه ولو ضحى فى ذلك بمعانى الشهامة والرجولة التى ينبغى أن تتوفر فى داعية مثله .

صفاته وخصائصه :

أن لبولس صفات تميز بها وكانت من أسباب نجاحه ، وقد تناول بيان سماته وسجاياه كثير من المحققين أمثال ول ديورانت . وشارل جينيير وغيرهما فى كتابيهما قصة الحضارة ونشأة المسيحية .

ومن هذه السمات أنه كانت تجتمع فيه الصفة الفاضلة مع ضدها ، وربما حاذى فى ذلك بعض البارزين من الرجال . . . فقد كان شجاعاً لكنه مندفع ، حاسما فى أحكامه لكنه متعسف ؛ يغلب عليه الجد والتعصب والابتداع ، إذا غضب كان عنيفا إلا أنه كان قادراً على أن يظهر للناس

---

(١) أع ٢٢ : ٢٥-٢٧ .

الحب الرقيق والرحمة الحانية ، يوجه أتباعه أن يباركوا الذين يضطهدونهم وفى الوقت نفسه يتمنى لأعدائه المختتنين « أن يقطعوا أيضا » .

وكان ذا تفكير عملى حى مصبوغ بعزيمة لاتقهر ، فهى عزيمة تفرض رسالة صاحبها وآراءه فرضا ، لأنه نفاذ البصيرة ، شديد الانفعال أكثر مما فيه من الظرف ودماثة الخلق ، فقد كان يحمل روحا حماسية وثابة ، وكان فيه الإحساس القوى والخيال أكثر مما فيه من نزاهة الحكم والنظرة الموضوعية إلى الأشياء ؛ ومع ذلك فهو ذو منطق بين مدرب على الجدل والمناقشة ، قوى فى العمل ، لديه قدرة خارقة على تطويع الآراء والمذاهب وتحويرها لخدمة أغراضه .

وقد وصفه بعض النقاد بأنه فى منزلة أعمق أصالة من الحواريين أنفسهم إذا ما قورنت صفاتهم تلك بصفاته ، حتى بعد تطوراته الأولى ؛ ويستدل على ذلك بقراءة الفصول الأولى من (أعمال الرسل) ثم قراءة (الرسالة إلى أهل (روما) ثم يقول : يجب ألا تغرنا الظواهر ، فعبقرية بولس فى التفكير الدينى لا جدال فيها غير أننا إذا بحثنا هذا التفكير الخاص به لوجدنا أنه ينطوى على آراء ومدركات ليست كلها من وحى عبقرية صاحبه الخاصة ، بل تجمعت لديه من مصادر مختلفة ، وإن كان له هو الفضل فى التعبير عنها ونقلها إلينا على غرار ما فعله (فيلون) الاسكندرى فى مؤلفاته التى انتظمت بين دفتيها جهودا كثيرة لسابقيه من مفكرى اليهود .

وقد صورت ملامحه بعض الروايات المأثورة فى المسيحية بأنه لما بلغ سن الخمسين أصبح رجلا زاهدا متقشفا مقوس الجسم ، أصلع الرأس عريض الجبهة ، أصفر الوجه تبدو الصرامة فى ملامح وجهه ، ملتحيا ، نفاذ العينين .

ومع كل ذلك فقد كان رجلا أسكرته (النشوة الالهية) أكثرمما أسكرت (إسبينوزا) نفسه ، يلتهب صدره بالحماسة الدينية بالمعنى الحرفى للفظ الالتهاب : لقد كان صدره ينطوى (فى داخله على الإله نفسه) .

وقد وصف نفسه فى بعض مواقفه حيث يقول (فى الحضرة ذليل بينكم وأما فى الغيبة فمتجاسر عليكم)(١) ومع ذلك فله فى الافتخار وحبه باع طويل نتحدث عنه فى الفقرة التالية إن شاء الله .

حبه للتعاظم والتفاخر :

لقد كان الرسول « بولس » يحرص إلى حد بعيد على التعاظم والتفاخر وحب الذات وإبراز أعمال بحيث يحب عليها المدح والثناء : وهذا ما نطقت به رسائله فى مواطن كثيرة ، مع أن التفاخر يتنافى مع تعاليم المسيح الذى أوصى تلاميذه ألا يتفاخروا بحسب أعمالهم حتى لا يهووا إلى درك النفاق ، بل مهما صنعوا من الحسنات يجب أن يتهموا أنفسهم ويقولون « نحن عبيد بطالون » وأن يكون التواضع سمتهم الغالبة .

ولكن « بولس » يخالف ذلك ويقول : « لأنى أحسب أنى لم أنقص شيئاً عن فائقى الرسل وإن كنت عاميا فى الكلام فلست فى العلم بل نحن فى كل شىء ظاهرون لكم بين الجمع »(٢) .

ونرى « بولس » يفتخر كثيرا بعمله وجهاده فى سبيل دعوته ، وحقاً لقد جاهد كثيراً ولقى من العنت والإيذاء كثيراً من أجل إنجاح دعوته

---

(١) ٢ كورنثوس ١٠ : ١ .

(٢) ٢ كورنثوس ١١ : ٥ ، ٦ .

التى حول فيها مسيحية الناصرى يسوع المسيح إلى مسيحية بولس الرسول الطرسوسى ، ولنسمع إليه وهو يصور ما لاقاه من مشقة ، تصويراً يصل فى براعته إلى حد المحسوس ، وهو من خلال ذلك يبلغ به حب الظهور وإعجابه بنفسه إلى حد أن طلب من أتباعه أن يمدحوه فقال فى رسالته الثانية إلى كورنثوس : « كان ينبغى أن أمدح منكم إذ لم أنقص شيئاً عن فائقى الرسل »(١) . ثم قال فى نفس الرسالة : « ولكن ما أفعله سأفعله لأقطع فرصة الذين يريدون فرصة كى يوجدوا كما نحن أيضاً فيما يفتخرون به لأن هؤلاء هم رسل كذبة فعلة ماكرون يغيرون شكلهم إلى شبه رسل المسيح » ، إلى أن قال : أهم عبرانيون ؟ فأنا أيضا ، أهم إسرائيليون ؟ فأنا أيضا ، أهم نسل إبراهيم ؟ فأنا أيضا ، أهم خدام المسيح ؟ فأنا أفضل »(٢) .

فأى غرور وتعاظم أعظم من هذا ، فهو لا يحب ولا يريد أن يكون هناك من هو أفضل منه ، ونراه ينزل بغيره من الرسل منازل الكذب والرياء والنفاق !!!

ويستبد به التعاظم حتى يجاهر بحقده على تلاميذ المسيح ويصر على وصفهم بالكذبة والماكرين والمخادعين ويصرح بأنه سيبذل قصارى جهده فى عرقلة مساعيهم كيلا يسبقوه فى نيل الشهرة أو يساووه فى العظمة ، وهو يرجو دائماً أن يكون فوق الجميع كما قال « بل راجين إذا نما إيمانكم أن نتعظم بينكم ... »(٣) .

كما يصر على إبراز فضله فى الجهاد والعمل وكأنه من خلال ذلك يبرز للجميع أنه صاحب الدعوة وإذن فهو ربها ونبيها حتى لا يدعى آخر أن له

---

(١) ٢ كو ١٢ : ١١

(٢) ٢ كو ١١ : ١٢ — ٢٣

(٣) ٢ كورنثوس ١٠ — ١٥

فى تكوين المفاهيم المسيحية الجديدة فضلا فيقول « بما أن كثيرين يفتخرون حسب الجسد أفتخر أنا أيضا ... فأنا أفضل .. فى الأتعاب أكثر ، فى الضربات أوفر ، فى السجون أكثر ، فى الميتات مرارا كثيرة ، من اليهود خمس مرات قبلت أربعين جلدة إلا واحدة ، ثلاث مرات ضربت بالعصى ، مرة رجمت ، ثلاث مرات انكسرت بى السفينة ، ليلا ونهارا قضيت فى العمق ، بأسفار مرارا كثيرة ، بأخطار سيول ، بأخطار لصوص ، بأخطار من جنسى ، بأخطار من الأمم ، بأخطار فى المدينة بأخطار فى البرية ، بأخطار فى البحر ، بأخطار من إخوة كذبة ، فى تعب وكد ، فى أسهار مرارا كثيرة ، فى جوع وعطش ، فى أصوام مرارا كثيرة ، فى برد وعرى ، عدا ما هو دون ذلك ، التراكم على كل يوم ، الاهتمام بجميع الكنائس ، من يضعف وأنا لا أضعف من يعثر وأنا لا ألتهب ، إن كان يجب الافتخار فسأفتخر بأمور ضعفى »(١) .

أى ومع كونى ضعيفا — وهذه صيغة أخرى للفخر — فإن أعمالى التى أعددها قوية وعظيمة أستحق أن أفخر بها وأمدح عليها ، فهذه الأقوال من الرسول بولس هى بعينها تمثل إعجاب المرء بنفسه أيما إعجاب وافتخارا منه ومنة على الناس وعلى الله ، ويؤكد ذلك بقوله فى مكان آخر « بل بإظهار الحق مادحين أنفسنا »(٢) .

كما يقول أيضا : « من جهة هذا أفتخر ... فبكل سرور أفتخر .. »(٣)

وإذا كان هذا هو ما يجيش به كيان الرسول « بولس » فهل هو بهذا

---

(١) ١ كورنثوس ١١ : ٨ — ٣٠

(٢) ٢ كو ٤ : ٢

(٣) ٢ كو ١٢ : ٥ ، ٩

متبعا لتعاليم سيده المسيح الذى يحث أتباعه على ألا يظهروا أعمالهم قدام الناس لكى ينظروهم فيكونوا كالمرائين ويحق عليهم الوعيد الذى توعد به العتاة من اليهود فتحبط أعمالهم(١) ؟

مع أن التواضع وذم الظهور وبغض الحب للذات هو من خلاصة تعاليم المسيح عليه السلام والتواضع وإنكار الذات أوصى به تلاميذه وكان هو أشدهم تواضعا .

« ولا تدعوا معلمين لأن معلمكم واحد المسيح ، وأكبركم يكون خادما لكم ، فمن يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع(٢) » « إن المستعلى عند الناس هو رجس قدام الله » لو ١٦ : ١٥ فما بالنا بالرسول « بولس » قد عكس القضية وسعى إلى الافتخار والأعجاب بنفسه وأحب المدح من الناس والتفاضل على الاخرين والامتنان على الله تعالى وعلى الناس؟ وهذا لم نأت به من عندنا وإنما هو من منطوق رسائله فى العهد الجديد .

مع أن الذى ينبغى أن يكون هو أن يكون قديس المسيحية قدوة حسنة لغيره كما كان المسيح عليه السلام ، كما يجب أن يكونوا نماذج صادقة لمن بعدهم ، وأول ما يجب أن يكون كذلك هو الرسول « بولس » .

---

(١) انظر الأصحاح السادس من إنجيل متى .

(٢) متى ٢٣ : ١٠ ، ١١

الفصل الثانى

الحياه الدينية فى الشرق الآسيوى

لقد قارن العهد الأول لقيام المسيحية قيام عدد معين من الآلهة التى كانت تحتل مكان الصدارة فى الحياة الدينية فى الشرق الآسيوى - من بحر إيجة إلى ما بين النهرين - وكان بين هذه الآلهة أوجه شبه فى كل مظاهر العبادة والطقوس التى تقام لكل منها حتى قدر لها أن تمتزج بل تتحد فى كثير من الأحيان، وكان أهم هذه الآلهة هو (أتيس) فى بلاد الفريجيين، و (أدونيس) فى الشام و(أوزيريس) فى مصر القديمة . و(تموز ومردوك) فى بلاد مابين النهرين، ثم (مليكارت) فى فينيقيا .

كما لا ينبغى أن ننسى الإله الفارسى (مثراس) الذى ذاع صيته وطارت شهرته فى تلك العصور فى ربوع الامبراطورية الرومانية، وكانت عبادته تنتقل من فارس إلى أقصى تخوم الامبراطورية الرومانية وكان أتباع كل من تلك الآلهة ينقلون معهم شعائرهم الدينية من عبادات وعقائد، وفى أغلب الأحيان كانوا ينشرونها خارج موطنهم، وكانوا تبعاً لذلك يجدون فى آلهة الشرق والغرب الآسيوى تشابها كبيرا فى مظاهر العبادة والطقوس والعقائد التى نشأوا عليها وأشربوا لبانها .

والمرجح أن الذى حقق التشابه هذا هو أنها نبعت وفاضت من فكر روحى متشابه فى صور أسطورية متقـــاربة تماما مصحوبة تلك الصور بالتمجيد والتعظيم، وكل هذا التقارب فى النسيج الأسطورى الممجد مع

التوحد الروحى فى ذلك جعل تبادل التقديس بين أصول تلك العبادات سهلا ومقبولا مما عجل بالإسراع فى التفاعل بين تلك الأديان والتأليف بين عناصرها لتصبح بعد ذلك ذات طابع متحد تقريبا وإن اختلفت فيما بينها فى نوع القصص الذى تعتمد عليه كل منها ولكنها تتفق جميعها فيما استخلصته من تصورات أساسية كادت أن توحد بين شعائر هذه الديانات بعد استجابتها لهذا السيل الهائل من تلك العقائد والطقوس ، وانصهارها فى بوتقة واحدة لتخرج إلى الأذهان صورة واحدة وإن تعددت أسماؤها .

وكل الآلهة فى منطقة الشرق الآسيوى كانوا يشتركون فى شعار أسطورى واحد هو موت الآلهة فى موسم معين ثم بعثهم فى موسم آخر من تلك السنة نفسها ، وكان هذا التوحد بين جميعهم يلفت نظر كل باحث فى دراسة التاريخ الأسطورى . وكانت نفوس المريدين تشتعل بالأسى والحزن عند الموت ثم لا يلبثون أن تغمرهم الفرحة الى حد الجنون إذا بشروا ببعثها من الموت ، ولا يفوتنا أن ننوه إلى أن هذه الآلهة ليست آلهة حقيقية ولكنها تشبه البشر إلى حد كبير فى أحوالهم فهم يتزوجون ويتناسلون ويموتون ويبعثون ، وبعضهم كان إنسانا ثم صار إلها بفضل ما كان يتدرج فيه من الأهمية العظمى من الوظائف بين بنى البشر ثم ألهتهم إرادة الآلهة الأخرى بفضل الأهمية التى لاقوها فى حياتهم .

وكان تفسير أصل هذه الآلهه والرموز الأسطورية التى تمثلها مثار جدل بين الباحثين ، وتحدد هذا الجدل بين فكرتين . الأولى : أن هذه الآلهة آلهة شمسية ، والثانية : أنها آلهة زراعية ، ولكن الفكرتين تتحدان فى تتابع الفصول السنوية التى ترتبط بنمو النبات وصلاحه وذلك بتنقلات الشمس ومجراتها المختلفة .

وينتج من انتظام الفصول هذه أسطورة تزعم أن الأله يموت فى بدء الشتاء ثم يبعث على أبواب الربيع ، ولهذا فإن بعض الآلهة ترجع إلى الفصيلة الشمسية (الكوكبية) وبعضها الآخر يرجع إلى الفصيلة الزراعية، وإن كانت قد تداخلت أساطيرها بمرور الزمن حتى خفى على كثير من المحققين التمييز بين الكوكبي منها والزراعى ، ولكن الذى يتفقون عليه بوجه عام هو أنهم آلهة يموتون ثم يبعثون .

ولا يخفى على اللبيب وجه الترابط بين حياة الشمس وحياة الأرض وهذا الترابط الشديد هو الذى يفسر لنا كيف تحول أرباب الزراعة إلى أرباب كوكبية .

ويبدوا أن (أوزيريس) الأله المصرى كان إلها قمريا . أما (تموز) فكان من آلهة الزراعة إذ يقضى عليه قيظ الصيف وتحييه أول نسمات الربيع فالموت ثم البعث كان سيما الجميع .

وكان معظم هذه الآلهة مرتبط بإلاهة أم تتمثل فيها الطبيعة الخصبة أو الأرض لأنهم تربوا بحبها ومنحتهم عطفها ، ويتمثل هذا فى الأم الكبرى (سيبيل) ثم فى (إزيس) وغيرهما ، لذلك ترى الناس جمعوا فى العبادة بين هؤلاء الأرباب وتلك الآلهة النسائية وأقاموا لهن الشعائر فى معابدهن .

وفى آخر مراحل الدين الزرادشتى كان (مثراس) فيه ابن أهورا ـ مزدا إله النور ، وكان هو أيضاً إله النور والحق والشرف ، وكان يقال له إله الشمس ، كما كان يقال إنه يقود الحرب العالمية ضد قوى الظلمة ، وإنه دائما يشفع لأتباعه عند أبيه ويحثهم على الكفاح الدائم ضد الشر والكذب والدنس وغيرها من أعمال (أهرمان) أمير الظلام .

وكان أتباعه يحتفلون فى الأيام الأخيرة ، من ديسمبر وتبدأ بيوم ٢٥ منه بمولد مثراس (الشمس التى لا تغلب) وهو مولد الأنقلاب الشتوى .

وكان عباده يشتركون فى تناول طعام مقدس من الخبز والنبيذ، وكانت الأشارات التى يختتم بها عيده هى دقات ناقوس .

ويقول كهنة مثراس إن الناس جميعاً سيحشرون لا محالة أمام مثراس ليحكم بينهم ، ثم تسلم الأرواح الدنسه إلى أهرمان لتعذب على يديه تعذيباً أيديا ، أما الأرواح الطاهرة فترتفع خلال سبع طباق حتى تصل إلى بهاء السماء حيث يستقبلها أهورا — مزدا نفسه (١) .

ومن العجيب الملفت للنظر أن توجد بين دين مثراس والمسيحية — وقد ساد إقليم البحر المتوسط — طقوسا تتخذ فى العادة صور احتفالات تطهير وتضحية وتثبيت روحى ، تدور كلها حول موت الأله وبعثه .

وكان الأشتراك الجماعى فى تناول الطعام والشراب المقدسين من المظاهر الكثيرة الحدوث فى أديان البحر الأبيض المتوسط ، وكثيرا ما كان أهل هذه الأديان يعتقدون أن هذا الطعام ستحل فيه بهذا التقديس قوى الأله ثم تنتقل منه بطريقة سحرية خفية إلى المشتركين فى تناوله .

ويحدثنا ول ديورانت فيقول : والراجح أن فكرة الأله المنقذ قد جاءت إلى غربى آسيا من بلاد فارس أو بابل ، فالتاريخ كله والحياة كلها قد صورا الديانة الزرادشتية فى صورة صراع بين قوى النور المقدسة وقوى الظلمة الشيطانيه ثم يأتى فى آخر الأمر منقذ هو (مثراس) ليحكم بين الناس ويقيم حكم العدالة والسلام الدائمين ، وكما يبدون لكثيرين من اليهود أن حكم رومة جزء من انتصار الشر القصير الأجل(٢) .

---

(١) قصة الحضارة جـ ٣ م ٣ ص ١٤٧ وما يلى .

(٢) المرجع جـ ٣ م ٣ صـ ١٨٠ .

وقد تضمنت هذه الأديان صفات جعلت نصف رومة ونصف الامبراطورية تنضوى تحت لوائها وأهم هذه الصفات عدم التفرقة بين الأجناس والطبقات فقد كانت تقبل بين أتباعها مختلف الأمم وكل الأحرار وجميع الأرقاء .

والذى يعنينا هنا بالدرجة الأولى هو الخصوصية التى تضمنتها هذه الأساطير من موت الآلهة وبعثها فى احتفالات تمثل مأساة مسرحية ، وأهم هذه الاحتفالات هو الاحتفال الخاص بانتصار الآلهة أو بعثهم بعثا جديدا بعد موتهم .

تطور هذه العقيدة الأسطورية :

لقد تطورت أسطورة موت الاله وبعثه بتطور الشعور الدينى فى أذهان الناس ويتمثل ذلك فى الخطوات التالية :

يتعذب الأله كما يتعذب الإنسان ، ثم يموت كما يموت الإنسان ، ولكن الأله يتغلب على العذاب وكذلك على الموت ، وذلك ببعثه من جديد ليتمتع — كما يعتقد المؤمنون به — بحياة السعادة فى دار الخلود الألهية .

هذا ، ولابد من المشاركة من قبل المؤمنين للاله فى مصيره بحيث تنتهى بهم هذه المشاركة إلى البعث فى الحياة الأخرى فى دار السعادة الأبدية .. فتمثلوا ذلك فى طقوس تنتهى بهم إلى إمكان مشاركة الاله فى ذلك بواسطة خطوات ذات مراسم دينية يمر فيها الشخص بتلك المراسيم التى يمر بها الإله ليتحد بذلك الإله فيتغير فى جوهره ، وحينئذ يضمن أنه يصير إلى مصير الإله نفسه المنقذ لأنه اتحد به .

ويقص علينا أحد الكتاب من القرن الرابع الميلادى صورة وصفية

لاحتفال كان يقام لمثل هؤلاء (الآلهة المنقذين) فيقول . (يبكى الناس ويستقلون للرعب من المصير المجهول الذى ينتظرهم فى المستقبل اللانهائى ثم يمر الكاهن على كل منهم فيلمس صدره حسب شعائر معينة وهو يهمس فى أذنه بالكلمات القدسية التالية « لتعد الثقة إلى نفسك فقد نجا الاله ، ولسوف تصل أنت أيضاً إلى النجاة فى نهاية طريق الآلام) والوحدة بالاله كانت هى الهدف من وراء تلك العبادات ، ولكننا لا نعلم كيفية هذه الوحدة على وجه التحديد ، وكان من أهم هذه الطقوس طقسين يستوجبان الذكر هما التعميد بالدم ومأدبة القربان(١) .

وديانات هؤلاء الآلهة المنقذين الشفعاء أمثال . (مثراس) و(بعل)السورى و(سيبيل) ،وغيرهم كانت تجدد الاتحادالمنجى المترتب على الشعائر المذكورة والطقوس بواسطة مآدب خاصة بالمؤمنين يتناولون فيها الطعام جماعة على موائد الاله ، ويترجح أنه كان يفرض تقديم كأس من الشراب وقطعة خبز إلى المؤمن مع التلفظ ببعض العبارات المعروفة آنذاك ولكن لم يوضحها الكاتبون ، كما يترجح أيضاً أن مآدب القربان تذهب فى معناها إلى أبعد من أن تكون موائد طعام ، إنها ترمز إلى أبعد من ذلك إنها بالنسبة للمؤمنين (إطعام الإله نفسه) (وتشربهم بجوهره المنجى) .

مقارنة بين التدين فى آسيا والتدين فى المسيحية :

بعد التطواف فى آسيا وفى الحياة الدينية فيها وخاصة فى جزئها الشرقى يمكننا أن نعقد مقارنة نتعرف من خلالها على وجه الشبه القوى بين الشعائر والطقوس التى استعرضناها هنا وبين الشعائر والطقوس وخاصة التعميد

---

(١) المسيحية نشأتها وتطورها ص ٧٤ ، ٧٥ .

والقربان عند المسيحين ، وإن الأمر يتعلق بأكثر من شعائر وطقوس بعينها ، بل يرى فى معناه إلى نوع من التصوير للمصير الإنسانى والخلاص البشر ، ثم هو رمز للايمان الدافع إلى الاطمئنان المرتبط ذلك كله بـ (السيد الالهى) الذى يتحمل الشفاعة للانسان عند الاله الأعظم بعد أن ارتضى هذا (السيد الالهى) نفسه أن يعيش وأن يتعذب كالانسان حتى يصير بنوا البشر فى قرب يسمح باتحادهم به ، فهذا هو طريق النجاة حيث يرتبط مصيرهم ومستقبلهم بمصيره ومستقبل انتصاره ، وتلك هى بالذات عقيدة القديس بولس فى رسالة ودور السيد المسيح ، ولكن هذه العقيدة ليست غريبة على الناس فى عصره وإن كانت قد أبرزت الجانب الأخلاقى أكثر ، ولكنها لم تبتدعه إلا أن المسيحية بالغت فيه وتشددت .

ونستطيع أن نوجز القول فى ذلك بأن معنى الرموز والشعائر والطقوس المسيحية قد اقتبست من مراسم وشعائر عصر القديس الذى كان بطل هذا الاقتباس ، وإن كنا لا نعدم أن يكون هناك من يخالف هذا القول رغم ظهور التشابه واتحاده من القرن الأول الميلادى عصر القديس بولس إلى القرن الخامس عهد أوغسطين ، بل خرجوا فى تفسيره عن حده المألوف حيث قالوا مبررين هذا التشابه : إن الشيطان أراد أو يتشبه بالمسيح ، وإن شعائر وطقوس الكنيسة كانت مثالا أراد المشركون أن يحتـــذوه فى (أسرارهم) .

وهذا فهم خاطىء : لأن هذه الأساطير الجوهرية والمراسيم الدينية الأساسية والرموز والشعائر كانت سابقة فى تلك الديانات على مولد المسيحية ، وكانت تطبق مرارا فى العبادات المنتشرة فى العالم اليونانى فى إبان العهد الذى عاش فيه بولس .

هل تعرف بولس على الأفكار والأسرار السائدة فى عصره :؟

كان فى طرسوس إلهان من الآلهة آنفة الذكر فى العصر الذى عاش فيه بولس ، وذلك من خلال الآثار التى اعتمد عليها المؤرخون اعتمادا يقينيا .

وأحد هذين الألهين دعى باسم (بعل طرز) أى (سيد طرسوس) وقد قرن اليونان اسمه باسم (زيوس) .

أما الثانى فيدعى (ساندان) وقرن اليونان إسمه باسم (هرقل) و (بعل) من آلهة الزراعة على الأرجح ومهمته التحكم فى خصوبة الأرض ونتاجها ، ولكنه لما انتقلت عبادته إلى المدينة واقترن إسمه بزيوس ارتفع شأنه ومكانته واتخذ من صفات الأله السماوى ما سما به إلى أعلى المراتب بين أتباعه حتى أصبح سيد الآلهة .

أما الأله ساندان فإن عبادته ضمنت بعض الأفكار عن الأديان الأخرى المعاصرة له ، ولأنه إله زراعة فهو يمثل بين أهل طرسوس نفس الآراء والمعتقدات التى كانت تسود عصره مثل (تموز) بين أهل بابل وأدونيس بالشام وأتيس بين الفريجيين وأوزيريس بمصر وغير ذلك من الآلهة التى شابهته فى الأصقاع الأخرى ، وكل هذه الآلهة تموت وتبعث وهم فى نظر أتباعهم وسطاء وشفعاء للبشر عند الأله الأعظم كمنقذين ومن غير شك فإن بولس كان يعرف الطقوس السنوية التى تمجد إلهى طرسوس وهذا كاف فى إلمامه بثقافة الأديان والمذاهب السائدة فى موطنه طرسوس ومن المرجح القريب من اليقين أن طرسوس كانت تحتوى عبادات أخرى ذات أسرار فى مطلع المسيحية قد انتقلت إليها عن طريق التجارة بسبب موقعها حيث هى على مفترق طرق التجارة ، فكانت أجمة من الأفكار والمعتقدات السائدة فى البلاد التي كانت قريبة منها مثل بلاد الفريجيين وأيضا صلة

طرسوس بالشام وارتباطها بمصر مع دوام العلاقة بينها وبين فينيقيا ، ولا يشك باحث فى أن الأسرار التى كانت سائدة فى هذه الأقاليم قد استقرت فى طرسوس ضمن معارفها وتشربوا موضوعاتها الأسطورية ومعلوم أن المبادلات فى المجال الدينى كانت منتشرة بين المدن ، على أنه من المؤكد أن طريقة التأليف الدينى الذى يقرر الخلط أو الامتزاج بين الآلهة ذوى الصفات المتشابهة كانت سائدة أنذاك .

ونزعة التأليف بين الأديان هى العنصر الأساس فى نمو (الأسرار) ، والتاريخ يثبت بتأكيد أن طرسوس كان يسودها نزعة المزج والتأليف الدينى .

ومن خلال ما ذكرناه عن نظام العبادات ومظاهر الطقوس فى طرسوس نستطيع القول بأن بولس وقد تربى فى أحضان هذه البيئة لابد وأنه قد أحاط بكل أسرارها وطقوسها ، فقد كانت مشبعة بعقيدة (المنقذ) التى تقوم على أساس الوساطة والشفاعة من إله يموت ثم يبعث مع اتحاد أتباعه به فى مصيره بالأيمان القوى مع الطقوس المقررة ، وليس هناك ما يمنع من التعرف على جميع الأسرار .

كما لا يفوتنا أن نذكر أن أساتذة المذهب الرواقى قد أخذوا يعرفون الجماهير بمذهبهم وفلسفتهم فى ذلك العصر ، حتى اشتهر مذهبهم وذاعت أخلاقهم ومصطلحاتهم بين الجماهير .

ويدعونا المقام هنا أن نقول إن بولس قد عاش فى هذه البيئة التى أشبعت بفكرة النجاة والمنقذ ، كما أشبعت ثانيا بالأفكار الفلسفية الرواقية وأخلاقها ، وهذه الأفكار تظهر الرواقية جليا فى قراءاتنا لرسائل بولس التى تحتوى الكثير من مبادئها فى كثير من الأحيان ، ولا عجب فى ذلك فهو قد أشرب هذه التعاليم فى سنى طفولته وزهرة شبابه ، مع الأخذ فى الأعتبار أنه من يهود المهجر الذين يمتازون بتقبلهم لكل ما حولهم من تيارات فكرية وعقدية بحكم تعايشهم مع البيئات المهجرية ، وعليه فقد أحاط بولس

بفهم عميق بمفاهيم الفلسفة الرواقية من ناحية ، وبالأسرار الباطنية من ناحية أخرى ولو عن طريق غير مقصود ربما يكون بطريقة لاشعورية ، وكانت هذه لها الأثر الفعال فى تقريره لدعوته الجديدة .

وأنه لمن المقرر لدى الكثير من المحققين أن يهود طرسوس وهم من اليهود المهاجرين ليسوا من المتشددين فى تمسكهم بالشريعة ، وإنما كانوا يفتحون أبواب معابدهم لمؤثرات البيئة التى يقومون بين ربوعها ، وكان منهم من استسلم لتيار المزج والتفاعل والتأليف بين الأديان التى مر ذكرها .

ونرجح أن هذا التفاعل قد تناول عقيدة الانتصار على أعداء اليهود وعقيدة حلول مملكة المسيح وتطورها إلى عقيدة النجاة بشفيع وسيط هو المنقذ ، ونحن وإن كنا نقول بأن بولس كان سليل عائلة فريسية متشددة كما يذكر سفر الاعمال ، الا أننا نستطيع القول بأنه لم يتجاهل ثقافة البيئة التى يعيش فيها طفولته وشبابه فتشرب رحيقها بطريقة قد تكون لا شعورية وكان ذلك نواة أولى فى تطور عقيدته إلى مذهب النجاة وعقيدة المنقذ ويشر بها بالنجاة باسم المسيح المنقذ .

على أننا عند التحليل لشخصية بولس نجد أن أسلوب التبشير عندة كان يصطبغ بالصبغة اليونانية الرومانية المحكومة بالعقيدة اليهودية ، وتلك خصائص ثلاث قد وفرت له الأساليب الممكنة التى تجعله أقدر الناس على القيام بمهمته :

الفصل الثالث

قصة تحوله إلى المسيحية

الأطوار التى مر بها بولس فى تحوله إلى المسيحية :

مما لا شك فيه أن بولس قد امتاز بأصالة العبقرية التى لا يحوزها إلا النادر من الرجال لكننا مع ذلك نراه قد وقع تحت تأثير التلقى عن آخرين قدموا له صورة معينة لشخصية المسيح ولدعوته وهذا التلقى هو الذى جعل بولس ينقلب فجأة من متعصب للشريعة اليهودية إلى مبشر بما يدعى أنه دعوة المسيح حتى أصبح مدافعا غير مغلوب عن هذه الدعوة وجعل من الصورة التى بلغته عن المسيح ودعوته أساسا لما أسماه (بأنجيله) ثم طور هذه الصورة التى بلغته بحسب إحساسه وقدرته الأبداعية الخصبة .

والثابت لدى الباحثين بوجه عام أن بولس لم ير المسيح ولم يعرفه ، وإن كان يدعى أنه عرف المسيح من قبل ، لكنه وقت سعيه فى دعوته قال إله لا يعرفه(١) .

فهذا قول منه يخالف ما أجمع عليه الباحثون من عدم معرفته له كما أن الثابت أيضا لدى الباحثين بل هو الثابت فى رسائله أنه كان أعنف المضطهدين لكنيسة المسيح قبل أدعائه الإيمان به(٢) .

وهو إنما يذكر ذلك فى رسائله ليبرز افارئية تحوله المفاجىء من

---

(١) م كورنثوس ٥ : ١٦ .

(٢) أع ٧ : ٥٨ و٨ : ١ – ٣ و٩ : ١ – ٢

من العداوة الشديدة لهم إلى الدعوة الخالصة للمسيح ومن المؤكد أن تطور بولس نحو المسيحية لم يتم بالقدس ولم يؤلف مذهبه عن اتصال بالحواريين الإثنى عشر وإنما من سلسلة حلقات متصلة أولها عيسى ثم المجتمع المسيحى الأول ثم المسيحية الهيلينستيه ، ثم بولس وهاك تسلسل هذه الحلقات .

إن الجماعة الأولى التى آمنت بالمسيح كانت تقيم بالقدس وهى جماعة يهودية صرفة ، ولا يفترقون عن اليهود الآخرين غير المؤمنين إلا فى إيمانهم بأن عيسى الناصرى قد شرفه الله بجعله مسيحا قد تحققت به الآمال وهم لم يتجهوا إلى دعوة المشركين إلى عقيدتهم لأنها مقصورة على بنى إسرائيل ، إلا أن هذه الطائفة لم تلبث أن فقدت خصائصها كجماعة أولى من أصحاب عيسى الناصرى وكطائفة يهودية خالصة تختلف عن يهود المهجر ، وكان فقدانها لهذه الخصائص من غير قصد منها .

ذلك أن بعض اليهود فى المهجر والذين عاشوا زمنا طويلا فى مختلف البلاد اليونانية — ويسمون بالهيلنستيين — قد عادوا إلى وطنهم فلسطين والقدس للإقامة به شوقا إليه خاصة وأنهم كانوا يتوافدون عليه فى المواسم والأعياد الكبرى ، وحياة المهجر كانت تعطيهم مرونة وقابلية للتجديدات على خلاف ما كان عليه أقرباؤهم من الفلسطينيين ، فهؤلاء اليهود المهجريين قد تعرفوا على عيسى ودعوته فى مهجرهم وآمنوا به ويدعونه مع عدم تخليهم عن روح المرونة المجددة .

وكان هؤلاء الهيلينيون يتساهلون فى موقفهم من الشريعة اليهودية ، وهم دائما مغرمون بتيارات التأليف بين الأديان ، وكان لهم موقف عقلى وعاطفى لا يتفق مع ما يتجه إليه يهود القدس أولا ثم الحواريون ثانيا ؛ فلذلك كان الغضب من السلطات اليهودية على هؤلاء الهيلينستيين فاضطهدوهم وأجلوهم من القدس وأبقوا الحواريين فيها .

ويرجح الباحثون أن هؤلاء الهيلينيين الذين أخرجوا من القدس كانوا

أول المبشرين بدعوة المسيح إلى اليهود المقيمين فى بلاد الوثنيين ومجتمعات الشرك ، وكان يرتبط باليهود فى هذه المجتمعات طوائف من المتلهفين على اليهود المتقربين إليهم مع الأبقاء على صلتهم الوثيقة بعالمهم المشرك .

ولإننا نلمح من بعض النصوص فى سفر الأعمال أنه كان هناك بعض الطوائف من الذين اعتنقوا دين المسيح يقيمون بين الجاليات اليهودية بفينيقيا وقبرص وأنطاكية(١) .

وكان من نتيجة ذلك مولد كنيسة أنطاكية من هذا الائتلاف المختلف المشارب .

يقول رينان (إن نقطة البدء للكنيسة التى جذبت المشركين ومركز التبشير المسيحى الأول كانا فى أنطاكيا ، هناك ولأول مرة أنشئت كنيسة مسيحيه تخلصت من صلاتها باليهودية ، وهناك تأسست الدعوة التبشيرية الكبرى فى عهد الحوارين ؛ وهناك كذلك تطور بولس تطوره النهائى »(٢) .

كنيسة أنطاكية وأثرها فى التكوين المسيحي لبولس :

مما سبق ومن الثابت فى مجموعة (أعمال الرسل ١١ : ١٩ — ٢١) أن المجموعة الهيلينستية التى أخرجت من القدس استقر مقامهم وبدأ تبشيرهم فى أنطاكية وأقاموا بها أول كنيسة أطلق على أعضائها الذين آمنوا من المشركين

---

(١) أع ١١ : ١٩ — ٢١

(٢) كتاب الرسل لرينان ص ٢٢٩ نقلا عن نشأة المسيحية وتطوراتها لشارل جنيبير ص ٩٠

— أطلق عليهم — لأول مرة صفة المسيحيين ، ومن النص المذكور نفهم أن الغالبية التي استجابت لدعوتهم كانت من اليونانيين المتتلمذين على اليهود ولم يزالوا على صلة بعالمهم الأول اليوناني ، ولقد وجدت الدعوة بينهم تقبلا و قتناعا شديدا أكثر مما وجدت بين اليهود الأصليين ، لذلك ضمهم اليهود المهتدين إلى صفوفهم ثم أصبحوا الغالبية العظمى في هذه الكنيسة ، ثم قاموا بإخضاع التعاليم اليهودية الصحيحة لمقتضيات عقيدة الأمل في المسيح ، فكان المسيح في المقام الأول من دينهم وان لم يعرفوه من قبل ، وسعت هذه الطائفة إلى تأصيل فكرة (تمجيد المسيح) ونزعوا في تصورهم لشخص المسيح ورسالته إلى التخلص من كل خصائص عيسى كمسيح لليهود ليرتفعوا به إلى مفهوم أعم وأوسع وأرفع وأعلى مكانا وهو مفهوم يحاكي لقب (سيد) :

على أنه ليس من جزاف القول إذا قلنا إن المسيح في نظر حوارييه (ابن الإنسان) وموته عندهم ليس بالتضحية التكفيرية . ولم يتفقوا على وصفه (بابن الله) بل هو عندهم (خادم الله) وعبد الله .

أما عند بولس فكان المسيح (ابن الله) الذي مات من أجل خطايا البشر ، وقد طور بولس هذه العقيدة ونماها إلى المفاهيم التي تقوم عليها اليوم ؛ ومن المحتم في القول أن بولس أخذ هذه المفاهيم عن مصادر بعيدة عن المسيحيين أتباع عيسى أنفسهم ، كما أنه لابد من الاعتقاد بأنها واردة عليه من المجتمع الهلينستي وأن هذا المجتمع هو مجتمع أنطاكية .

ونستطيع أن نجمل القول فيما سبق في أن التسمية بالمسيحية نشأ أول ما نشأ في رحاب البيئة الهيلينستية ، وأن اتصاف المسيح بـ (ابن الله) والارتقاء به إلى أن يقترن باسم (السيد) إنما كان من تطور بولس لمفاهيم عقيدته حتى إن لقب (السيد) الذي منحه لعيسى سيطر على رسائل بولس المهمة .

و (السيد) فى نظر بولس هو رأس الكنيسة وهو يحتل المركز الأعلى فى العبادة عنده ، ويبدو أنه استعاره من العهد القديم ، وقد بالغ فيه حتى تولدت علاقة بين (عبد المسيح) والمسيح نفسه(١) .

القيامة والعالم الآخر فى نظر بولس :

تقوم هذه الفكرة عند بولس على قاعدة ذات شقين :

الأول منها (الإيمان بالسيد) .

والثانى (عبادة السيد) ولهذين الشقين مفاهيم تتعلق بهما .

فعبادة السيد تشعر بحضوده وعظمته الحاضرة ، وعباده يحسون كأنه قائم بينهم ، وتلك كانت النزعة السائدة لدى أتباع الديانات ذات (الأسرار) فقد كانوا يشعرون بالحلول الآلهى أثناء الاحتفالات السنوية ، التى يشتركون فيها .

وعبادة السيد المسيح فيها شعور بالابتعاد عن اليهودية والتحلل من تشددها خاصة أمام حراسها من يهود القدس وفلسطين .

وكانت هذه القاعدة ومفاهيمها هى الخطوة الأولى فى تكوين بولس المسيحى ، وهى وإن كانت سابقة عليه إلا أنه أخذها من بيئة ليس هناك من هو أقدر منه على استيفائها منها وإدراكها منها ، وذلك بحكم نشأته اليونانية الهيلينية ومن مجتمع يهودى مسيحى .

وكانت فكرة السيد الإلهى الذى يموت من أجل نجاة أتباعه شائعة فى البيئة السورية التى كانت طرسوس موطن بولس من أعمالها .

---

(١) أنظر كورنثوس ٧ : ٢٢ :

وهذه العبادة تجعل المؤمن يتوحد مع المسيح المنقذ فيعتقد بالنجاة إذا ما اقترن ذلك بطقوس تتمثل عند بولس فى (التعميد) الذى يرمز إلى الموت والبعث فى المسيح ، ثم فى (القربان) ، وهو يرمز إلى مأدبة الوحدة على مائدة السيد ، والتعميد أخذه الهلينيون عن المتتلمذين على اليهود من المشركين ، كما أخذ القربان من أصحاب عيسى من اقتسام الخبز بين جماعتهم .

وليس من الممكن أن نتصور أن هذين الطقسين لم يؤخذا من معان صوفية أوحت نفس (الأسرار) التى استقى المجتمع منها مفهومه : ل (السيد عيسى المنقذ) .

وحديث بولس عن هذه الأفكار يوحى بأنها كانت مستعملة فى تلك المجتمعات التى استمعت له وبث فيها دعوته وكان دوره فى ذلك أنه تعمق فى بحثها ونماها وأظهر غايتها . والدليل الصريح على ما نقول هو قوله (لقد علمتكم . . . بما علمت . . أن المسيح مات من أجل خطايانا حسب ما قدر له فى النصوص المقدسة)(١) .

خلاصة المراحل التى دفعت بولس إلى التحول المفاجىء :

إذا ما وصلنا إلى مرحلة الاقتناع بأن بولس تلقى أسس عقيدته عن مجتمع هلينى هو مجتمع أنطاكية وطرسوس وكذلك دمشق أيضا فى غالب الظن ، مع اعتبار أنه اليهودى الفريسى المتعصب ، أمكن أن نتوصل إلى المبادىء والمراحل التى نتج عنها تحوله المفاجىء على النحو التالى :

١ — أنه ربى فى رحاب التيار المهجرى بما امتاز به من مرونة ونزعات متفاوتة فى قوتها نحو التأليف بين الأديان .

---

(١) ١ كورنثوس ١٥ : ٢

٢ — أنه وجد المفاهيم والشعائر التي ذكرناها في هذا المجتمع الهلليني .

٣ — أنه منذ طفولته قد أحاط به من كل جانب إيمان الناس بإله يموت ويبعث ، وأنه قد أشرب هذه المفاهيم ولو عن غير قصد منه لأنها وثنية وكانت من قبل بغيضة إليه .

٤ — أضف إلى ذلك ما اعتقده في اليوم الآخر وحلول مملكة الله التي كانت تتطور نحو العالمية : متمشية مع (الأمل) الذي عبرت عنه (الأسرار) الوثنية ولما تلاقت هذه المفاهيم الروحية والفكرية في البيئة التي نشأ فيها مع العقيدة المسيحية في صورتها التي قدمها إليه الهلينستيون والتي كانت قريبة إلى روح يهود العالم اليوناني : أخذ بولس يعمل جهده على تطوير وتنظيم ما تلقاه بما أوتي من علم بأصول الدين اليهودي .

وقد أحدث كل هذا التلاقي تفاعلا أدى إلى أزمة التحول المفاجيء ، ونشأ هذا التفاعل عن أثرين مهدا لهذا التفاعل :

أولهما : خصائص شخصية بولس المتقلبة النازعة إلى التهيؤات الصوفية التي بنيت على الصورة المسيحية المقدمة من الهيلنيين والمؤسسة على فكرة التحرر من الخطيئة بواسطة (السيد عيسى) .

ثانيهما : التأثيرات التي تراكمت في أعماق اللا شعور شيئا فشيئا من تأثيرات (أسرار) طرسوس وأنطاكية ، ومنها فكرة المنقذ التي عرفها منذ طفولته ، ثم تأثير معلمين من اليهود وتعليمهم إياه بالأمل في حلول مملكة الله ، ثم ضعفه أمام الخطايا التي لا يقدر أن يتجنبها .

وينبغي أن نضيف إلى ما تقدم بشيء من الأهمية ما كان يشتمل عليه داخله من قلق ديني عميق الجذور والذي عبر عنه في الأصحاح السابع من رسالته إلى أهل رومية ، فمن خلاله نتبين أن بولس كان غير قادر على مقاومة الخطايا التي تنذر بعواقبها الشريعة اليهودية حيث تفسيرات الفريسيين

وهذه التفسيرات فى ذلك الوقت كانت مثار الأزمات النفسية التى كانت تدفع بالكثير من أتباعها إلى البحث فى غير هوادة عن (المنقذ) أو عن (الوسيط الإلهى) الطاهر المنزه عن الدنس والخطيئة .. وهذه ظاهرة يجب أن نلاحظها باهتمام بالغ إذا أردنا دراسة انفعالاته النفسية ، فإن بولس كان يحس قبل تحوله إلى أنه ابتعد عن الله ، وأن روحه قد أصبحت فى حالة إثم وأنها مفتقرة إلى الكمال سيما وأنه الفريسى المتشدد ويبتهج باليقين الإيمانى .

فلما رأى صورة المسيحية التى أشربت الروح اليونانية وسيقت إليه من أربابها الهلينيين قد حملت موت المسيح معنى التكفير عن خطايا البشر (حسب ماقدر فى النصوص المقدسة ..) أمكننا أن نتصور فى يسر وسهولة مدى اقتناعه بأن فى هذه الصورة الحل الأمثل لما يتنازع فى داخله من أزمة الإثم وغفران الخطايا منذ طفولته .

وهذين الأثرين هما اللذان جعلا من بولس مسيحيا بالقوة وداعية المسيحية بالأرادة المطلقة ، وما ذكر هو مراحل تطوره إلى التجول .

وتراكم كل هذه المؤثرات مجتمعة هو سبب تحول بولس المفاجىء ، وكانت نتيجة ذلك كله تلك البرقة الخاطفة التى هى أثر لنزعة صوفية .

ولكن بولس حين انتقل إلى المسيحية لم يغير من انطباعه الأول كيهودى إلا أنه ضم عيسى إلى مجال نشاطه المنفعل بكل آثار البيئة التى نشأ فيها فأعطاه من معلوماته الخاصة ما أكمل به الصورة الحالية للمسيحية ، وهى نتاج فكره وخياله الذى اعتاده كيهودى فريسى مهجرى .. وقد عبر عنه رينان بقوله : « إن بولس لم يغير سوى موضوع تعصبه »(١) .

---

(١) أنظر كتاب (الحواريين) لرينان نقـــلا عن نشأة المسيحية لجينيبير ص ١٠٠ :

في الطريق إلى المفاجأة :

كان بولس على عهد المسيح يهوديا متعصبا يدعو إلى الدين اليهودي بكافة الوسائل ويضيق على الذين يناوئون دينه إلى حد التعسف ، فلذلك كان شديد البطش بالمسيحيين يضطهدهم وينكل بهم أني وجدهم « فقلت يارب هم يعلمون أني كنت أحبس وأضرب في كل مجمع الذين يؤمنون بك »(١) (فإنكم سمعتم بسيرتي قبلا في الديانة اليهودية أني كنت أضطهد كنيسة الله بأفراط وأتلفها ، وكنت أتقدم في الديانة اليهودية على كثيرين من أترابي في جنسي إذ كنت أوفر غيرة في تقليدات آبائي »(٢) .

ولم تستطع دعوة المسيح أن تنفذ إلى قلبه ووجدانه حتى يمكن أن تجذبه إلى الهداية وذلك لعتوه واستكباره وعناده ، فهو الذي رأى وشاهد وساهم مسرورا في قتل « استفانوس » داعية المسيح الجيد » ورآه يرجم حتى يموت كما أخبر هو بذلك (٣) :

وكان بولس يسطو على الكنيسة ويدخل البيوت ويجر رجالا ونساء ويزج بهم في السجن (٤) .

ولم يزل على وضعه هذا يهدد ويقتل كثيرا منهم حتى بلغ من شغفه في ذلك أن تقدم يوما إلى رئيس كهنة اليهود وطلب أن يرسله إلى دمشق ، إلى الجماعات التي ترامى إلى علمه أنهم آمنوا بالمسيح لينكل بهم ، حتى أنه

---

(١) أعمال ٢٢ : ١٩ .

(٢) غلاطية ١ : ١٣ ، ١٤ .

(٣) أع ٢٢ : ٢٠ .

(٤) أع ٨ : ١ — ٣ .

إذا وجد فى الطريق أناسا رجالا ونساء يسوقهم موثقين إلى أور شليم ، إلى السجن ، وكان يضطهد الجميع حتى الموت(١) .

المفاجأة :

لقد ختم بولس حياته بنبذ الشريعة اليهودية منتقلا إلى دين المسيحية الجديد فجأة وبدون مقدمات ملموسة توجب ذلك حتى مجرد النظر والفحص الدين المنتقل إليه كما يظهر من كتاباته ، وكانت نقلته هذه عام ٣٨ م تقريبا كما يذهب بعض الباحثين ، وكان بولس فى كلتا الحياتين داعية ورسولا ، فقد تحول إلى هذا الدين وهو يمارس ضده وضد أتباعه أعنف اضطهاد فى أور شليم وحدها كما يذهب البعض بل خرج إلى دمشق ليوقع النكال الشديد والعقاب الأليم بالذين قد دخلوا فى حوزته كما أخبر هو عن قصة إيمانه قائلا :

(فحدث لى وأنا ذاهب ومتقرب إلى دمشق وفى منتصف النهار أبرق حوله من السماء نور عظيم فخطف بصره وارتعد من معه من الرفقة وناداه بصوت : لماذا تضطهدنى ياشاول ؟ وأعلمه أنه الرب يسوع ، وسأله شاول (بولس) عما يريده منه ، فأخبره بالذهاب إلى دمشق وهناك يعرف ، فاقتاده من معه من الرفاق .

وهناك فى دمشق لقيه رجل تقى بار حسب الناموس يدعى « حنانيا » شفاه وأبصر وأخبره بأنه سيكون رسول الأمم وشاهدا لإيمان الناس وأمره على الفور بأن يعتمد ويغتسل من خطاياه واعيا إلى الدين باسم الرب

---

(١) راجع فى ذلك الأصحاحات ، الثامن آية ٣ ، والتاسع آية ١ ، ٢ والثانى والعشرين آية ٤ ، ٥ من الأعمال .

وتناول طعاما فتقوى ، وبعد ذلك بأيام قلائل دخل جامع دمشق ونادي في المسيحيين بأن المسيح ابن الله(١) ،

أما اليهود الذين غاظهم مافعل حين علموا ذلك منه فقد تشاوروا وأبرموا أمرهم على قتله بعد أن أوعزوا إلى حاكم دمشق فأصدر أمره بالقبض عليه ، ولكن عاونه بعض التلاميذ من أصدقائه على النجاة إذ أنزلوه فى سلة من فوق أسوار المدينة(٢) .

ومكث يدعو إلى المسيح ثلاثة أيام فى بلاد العرب كما أخبر بذلك .

أسباب أخرى تبرر تحوله إلى المسيحية .

يعزو الثقات من المحققين أسباب انتقال بولس إلى المسيحية فجأة بما عساه كان يزرقه من ذكريات اضطهاده لأتباع المسيح ، فأعادت ذاكرته إليه صلب المسيح وموته كما استحضرت ذاكرته أيضاصورة رجم « استفانوس » وموته بإيعاز منه كما أبدى تألمه من هذه الصورة بعد إيمانه فربما أيقظت هذه الذكريات وتلك الواردات إحساسه وضميره وعواطفه فى سفره وهو فى طريقه إلى دمشق مع ما كان يعانيه من مشقة السفر ووعثاء الطريق(٣) .

فقد كان يسير فى صحراء لافحة تحت حرارة الشمس الملهبة مع ما قد أضناه من تعب آنذاك وأزمة نفسية جامحة وفى أثناء ذلك حدثت برقة من السماء بسبب شدة الحرارة المنبعثة من لهيب الشمس فى صحراء قاحلة فهزت

---

(١) أع ٩ : ٣ — ٢٠ .
(٢) أع ٩ : ٢١ — ٢٥ .
(٣) أع ٢٢ : ١٧ — ٢١ .

جسده الضعيف فغشي عليه ، وربما كان سبب ذلك ما عساه كان مصابا به من إعياء حتى قام من نوبته هذه فاقد نور بصره ، على عادة ما نراه في مرضى الصرع غالبا من فقدان قوة الأبصار مدة عقب نوبته ،

أضف إلى ذلك ما قد صحب هذه الظاهرة فى داخله من قلب يعذبه الشك ويؤرقه أعمال الأجرام السابقة ، وثورة نفسية عارمة كانت نتيجة لصراع داخلى بهم(١) .

فلعل بعض هذه الأسباب أو كلها دفعت بما كان يجرى فى عقله الباطن وشعوره الداخلى إلى ذلك الانقلاب المفاجىء الذى أصبح بعده أكبر الداعين إلى المسيحية كما كان من قبل من الداعين المبرزين فى اليهودية .

وربما كانت هناك أسباب أخرى مباشرة هى الحقيقية فى تحوله هذا إلا أنها فى طى المجهول هى الآن .

ويقول جينيبير : ومن الحق أن نشير هنا إلى أن بولس — وهو الذى لم يلتق بالمسيح فى حياته قط — لم تكن ذكرياته وتصوراته عن سيده المسيح لتحدها آفاق الذكريات والواقع كالذين رأوه فى واقعه على الأرض قبل رفعه(٢) .

---

(١) شارل جينيبير ص ٦٩ .

(٢) المسيحية نشأتها وتطورها ص ٦٩ ، ٧٠ .

برنابا يثبته فى الكنيسة :

بعد ما آمن بولس بدأ فى تنفيذ الوصية التى أمر فيها بأن يدعو إلى الرب ويرغب فى الأيمان به ، لكن شيوخ الكنيسة توجسوا منه خيفة ، حيث لم يعهدوا منه إصلاحا لهم البتة ، بل ولا مودة أو رحمة أو إشفاق ، فهم لم ينسوا بعد أنه أعنف مضطهد وألد خصيم ، فارتابوا فى ادعائه الأيمان .

ويبحث بولس عن موثق يوثق إيمانه لدى شيوخ الكنيسة حتى يقنعوا بأنه آمن عن صدق وإخلاص ، وأنه لم يردبهم المكر والكيد والخداع ، ولكن لا بد أن يكون الموثق والمصدق على إيمانه ممن تعتقد الكنيسة صدق شهادته وقوة يقينه ليستأنسوا بقوله ويطمئنوا إلى مودته لهم ليصبح بولس بعد هذه الشهادة شريكا لهم فى الأيمان بالأنجيل والدعوة إليه ، وأمعن بولس فى البحث عن ذلك الشاهد فلم يجد سوى « برنابا » صديقه ليكون هو الشاهد والمعين ، فرحب به برنابا وأخذ بيده وأحضره إلى الرسل فى كنيسة اورشليم ، وحدثهم بما كان من إبصاره للرب وتكليمه إياه ، وأنه جاهر بالدعوة باسم يسوع فى دمشق ، وعليه قبلت الكنيسة إيمانه (١) .

وابتدأ بولس عقب اعتماده مؤمنا ينطلق فى الدعوة بقوة ونشاط منقطع النظير ، واتخذه بطرس رئيس الكنيسة كما يقول سفر الأعمال بعد ذلك صديقا له بعد ان عفا عنه ، وحملت الكنيسة مضطهدها القديم بشرى مجىء المسيح الذى سيقيم عما قريب ملكوت الله .

ولكن اليهود الذين يتكلمون اللغة اليونانية حاولوا قتله حين حاجهم بالأنجيل ، ولعل الرسل أحسوا بأن حماسته الشديدة وانطلاقه العنيف سيعرضهم للخطر فأرسلوه إلى طرسوس مسقط رأسه (٢) .

---

(١) أع ٩ : ٢٦ — ٢٨ .

(٢) أع ٩ : ٢٩ ، ٣٠ .

الباب الثانى

الداعية

ويشتمل على الفصول التالية

الفصل الأول : منهج الدعوة وعناصر تكوينها

الفصل الثانى : رحلات بولس التبشيرية

الفصل الثالث : تحقيق لمعنى البنوة

الفصل الرابع : موقت بولس من التوراة

الفصل الخامس : إنجيله والرسائل وتعميم الدعوة

تمهيد :

إن عيسى — عليه السلام — كان يؤكد فى رسالته على استمرار العمل بشريعة موسى — عليه السلام — ولم يزد على تراث موسى سوى عدة قضايا بسيطة من التعاليم يمكن لبولس أن يستوعبها ، ولو لم ير المسيح أو يلتقى به ، ولذلك حين حصلت المواجهة بينه وبين الحواريين فى القدس لم يقفوا منه موقف التجهيل بتعاليم المسيح لأنه يعرفها مثلهم ، وإنما نظروا إليه نظرة الشك وعدم اليقين فى إنجيله ، لأنه أظهر لهم حال الأيمان المناقض تماما لما كان عليه فى نظرهم قبل إعلانه هذا[1] ، وكان هذا اللقاء مع الحواريين بعد ثلاث سنين[2] من إيمانه ولولا أن برنابا شهد له بالأيمان أمام بطرس ويعقوب الحواريين لما حظى بالثقة فى قلوب شيوخ المسيحية أنذاك ولولا شهادته ما تعرف على أحد من المسيحيين وما تعرف عليه أحد .

(١) أع : ١ : ٢١ .
(٢) غلاطية ١ : ١٨ .

الفصل الأول

منهج الدعوة وعناصر تكوينها

قدم بولس تصوره عن المسيح بالصورة التى رسم صورتها الهيلينستيون فى موطنه وهى التى رسمت فى ذهنه، ولكن هذه الصورة رفضها اليهود فى أورشليم وآثارت ضجة أدت إلى تعقبه لقتله مما اضطر معه إلى الهروب مرتحلا إلى أنطاكية وطرسوس.

ولكن بولس لم تهن عزيمته فى دعوته لعيسى فى صورته الجديدة، فإذا كان مجتمع اليهود رفضه لفكرته الجديدة عن المسيح فإن هناك من يقبل هذه الدعوة فبدأ حياة عنيفة كمبشر بهذه الدعوة فى آسيا الصغرى وبلاد اليونان مراعيا الأمور الآتية:

١ — تعميم الدعوة بعرضها على غير اليهود.

٢ — موقفه من التوراة.

٣ — وضع إنجيل يتضمن صورة المسيح الجديدة والتعاليم التي يقررها.

ومن غير شك دخل فى دعوة بوليس أناس كانوا مشركين من غير اليهود غير جديرين بميراث (يهوه) الخاص باليهود، فأحدث ذلك ترددا قويا من الشيوخ بالنسبة لقبول هؤلاء فى زمرة المؤمنين، ولكن بولس بما أوتى من قوة الحجة وصلابة العزم أقنعهم من خلال تجربته فى رحلته التبشيرية الأولى بأنه إذا لم تنتشر دعوة المسيح فى غير اليهود فإن الدعوة التى ستظل

حبيسه بين فئة اليهود فقط سوف يقضى عليها فى هـذا الانحصار الضيق فى وقت قصير من الزمن .

وأخيرا استطاع إقناع شيوخ المسيحية الأول بقبول المؤمنين من غير اليهود خاصة إذا علمنا أن مجتمع اليهود فى القدس كان يغلب على ظنه أن بولس تسيره الروح الإلهية .

ولما أصبح فى الإمكان دخول المشركين فى الدين الجديد بدأت توجد عقبات أمام تيسير الدخول فى هذا الدين ، من هذه العقبات عقبة الختان التى لم يكن يألفها أو يرضى بها اليونانيون .

وثانى هذه العقبات أن أحكام الشريعة اليهودية التى جاء المسيح لاحيائها شديدة عليهم ولا تتفق مع طبيعتهم وأفكارهم .

وثالث هذه العقبات ، فكرة حلول مملكة الله وقضايا البعث ، فإن هذه الفكرة . وتلك القضايا لم يألفها اليونانيون أيضا ولا يهتمون بشأن هذه الأفكار لا من قريب ولا من بعيد .

معالجته لهذه العقبات :

أما عن العقبة الأولى والثانية فقد أخذ يعالجهما فى مهارة فائقة ، فأتى بفكرة حملت المسيح دعوة لم يأت بها ، فأذاع أن المسيح لم يأت إلا لنسخ تعاليم الشريعة اليهودية وأنه أبدل العهد القديم بعهد جديد ، وأن المرء هو محور التكليف بتعاليم الشريعة (الناموس) فإذا أخضع نفسه للعمل بتعاليمه كان محاسبا على مخالفته لأنه الذى دان نفسه به وله ، أما إذا لم يخضع نفسه للعمل به فقد انحلت ربقة التعاليم من رقبته فلم يكن هناك مخالفة ولا محاسبة على ما سنعرفه فى موقفه من التوراة فى فصل لاحق والمهم أن بولس استطاع بقوة شخصيته أن يقنع الحواريين الموجودين بذلك التحلل من تعاليم

الشريعة حتى أمكنه أن يجمعهم فى مجمع أورشليم الأول ٤٩ ميلادية أو عام خمسين فى رأى آخر وقرروا إعفاء المؤمنين من جماعة الوثنيين المشركين من كل التعاليم اليهودية التى قررها المسيح ، ولم يمتنعوا إلا عن أربع أمور هى : الإمتناع عن الزنا .

٢ — الإمتناع عن أكل المخنوق .

٣ — الإمتناع عن أكل الدم .

٤ — الإمتناع عن أكل ما ذبح على النصب(١) .

وحتى لا يغضب اليهود من إلغاء شريعة الختان ، وحتى لا يكون الختان قاسيا على المشركين اضطر أمام صريح النص أن يؤول الختان بأن المراد منه ختان القلب أى مواطأة الإيمان البولسى لشغاف القلب ، ويدعوه أيضا بختان الروح بالمعرفة لا ختان القلفة بالقطع ، فالتأويل أعطاه مندوحة ربما يرضى عنه اليهود المهتدون والمشركون الذين يدخلون الدين الجديد .

أما عن العقبة الثالثة وهى فكرة الدعوة إلى الملكوت ، فإنه كان يستقر فى عقيدة الوثنيين فكرة عامة كانت أملا قوميا ، تلك هى ترقب الخلاص إلى حياة أفضل تتسم بالسعادة الكاملة فى دار الخلود بفضل الإتحاد بالآلهة ذات (الأسرار) والشعائر الخاصة وذلك بفضل (المنقذ) الذى يموت من أجلهم ويبعث من أجل حياتهم السعيدة تلك .

وكان يشارك الوثنيين فى هذه الفكرة اليهود المستهلنون والمعايشون لهم فى أوطانهم كما كان يستقر فى أذهان اليهود عامة فكرة الإنتصار على يد مسيح يبعث إليهم ويحقق لهم مملكة داود العظمى .

---

(١) أع ١٥ : ٢٠ .

فاستطاع الداعية القدير أن يقدم المسيح للفئتين معا ليس على أنه الإنسان الذى وهبه الله نعمة النبوة ، ولكن على أنه ابن الله المرسل من أجل أن يحمل عن البشر خطاياهم ، كما يحمل لهم خلاصا ويقينا حقيقيا لحياة سعيدة مستقبلة تحقق فيها الروح كل ما تأمله من مصير أمثل .

وهذا تبشير يتفق مع الفكر الوثنى وعقائدة ، كما يتلاءم ويتفق مع الأمل القومى عند اليهود ، وهو الانتصار القومى بواسطة مسيح منتظر ، فأرضى بذلك الفريقين وحقق بهذه الصورة للمسيح كلتا الفئتين .

بقيت مشكلة أخرى تتمثل فى قضية صلب المسيح ، فهل صلبه بهذه الطريقة التى تتضمن إدانته وإهانته والتشهير بذنبه الذى استوجب الصلب ثم احتقاره واستذلاله يرضى عقول أتباعه وهم الذين يأملون منه الخير وتحقيق الأمل المنشود ؟ فهل يأملون فى ذيل حقير صلب بتهمته ؟

لابد إذن أن يعمل بولس فكره العظيم فى بلورة هذه الأفكار بتحويلها إلى معان سامية جديرة بالتعظيم بدل التحقير ، وتعليق الأمل الدينى بها لدى الفئتين حتى لا ترفض القلوب من حوله .

ففكر بعقله المهجرى فى حل هذه المشكلة : فتناسى بالكلية يسوع الناصرى ، كما تجاهل ما فى فكر الحواريين عنه ، وذكر تصوره على أنه شخصية إلهية كانت قبل أن يكون العالم وأن شخصيته تشخيص لروح الإله ، وهو لئن كان فى صورة رجل إلا أنه إلهى كان إلى جانب الله ثم أنزله إلى الأرض لينشىء بشرية جديدة يكون هو مجددها ومن يؤمن به يولد جديدا كأنما هو آدم تلك البشرية الجديدة .

أما عناصر تكوين هذه الفكرة فكانت مستقرة لديه فى مهجره فى تلك التعاليم اليونانية ذات الأسرار ، وعثر عليها دون ما عناء ، بل كانت

من عاداته البيئية وتتفاعل بها ذاكرته وذكرياته ، فجمع ركاماتها وألف منها هذه الصورة للمسيح الغادى بصلبه ، وأصبح الصلب ذا مغزى دينى بدل أن كان فى تصورهم ذو مغزى مشين : فقد علق على صلبه أمل حمل الآثام ورفع الخطايا التى ينوء بها حمل البشر بعد التوحد به والمشاركة معه فى المحبة والقربان وهذا هو سر رسالته .

وهذا نظام يستحبه اليونانيون كما لم يرفضه المسيحيون لأنه حقق لسيدهم أسمى مكانة وأعظم ذكرى ، وأصبحت بعد ذلك عقيدة بولس من العقائد الغنوصية التأليفية ، وأساسا صالحا للإكتمال بعد ذلك .

هذا ، وإن النصوص التى تبين عقيدة بولس المسيحية اليوم هى النصوص الباطنية المأخوذة من أسرار الديانات اليونانية السابقة .

العلاقة بين الله والابن فى نظر بولس :

إن توحيد الإله فى الدين اليهودى كان مقررا ، وكانت فكرة (الله) فى وحدانيته هى المسيطرة على عقل بولس ، وقد تربى على هذه الفكرة منذ وجوده .

والأمر الذى يدعو إلى الغرابة فعلا هو : كيف تصور بولس أن يكون عيسى (ابن الله) ؟ .

إن فكرة الثالوث ربما لم تخطر فى أغلب الظن على فكر بولس خاصة إذا علمنا أن القول بتأليه الروح القدس تكتمل للثالوث لم يتقرر إلا فى مجمع القسطنطينية لأول عام ٣٨١ م ، ولكننا نستطيع أن نلمس فكرة بنوة عيسى لله عند بولس ثم تطورها فى الفكر المسيحى . ذلك أن اليهود كانوا يطلقون كلمة (خادم يهوه) على كل من يظنون أن لديه (إلهاما) ويذهب

بعض الباحثين إلى أنه من البساطة بمكان أن تتطور كلمة (خادم فى اللغة اليونانية إلى كلمة (ابن) .

وقد أطلق بولس على المسيح كلمة (ابن) ولم يكن يتوقع أن يتطور معناها إلى بنوة حقيقية على مدار التاريخ ، أو أن يأخذ من بعده طابعا فلسفيا يذهب بمعناها كل مذهب ، وربما أطلقها كتعبير تقريبي عن علاقة أكثر من أن تكون علاقه بشرية بين الله وعيسى (السيد) وربما كان لا يستطيع التعبير عن هذه العلاقة إلا بهذا اللفظ ، الذى لا يحتمل المعنى الذى تنفعل به نفسه إلا به ، وربما لا يعدوا فى نظره أن يكون اصطلاحا لما ترتضيه نفسه ، لأننا نراه فى بعض تعبيراته عن هذه العلاقة بأن السيد المسيح خاضع لهيمنة الله عليه كما فى قوله : (وأما أنتم فللمسيح والمسيح لله)(١) .

وقوله (ومتى أخضع له الكل فحينئذ الابن نفسه أيضا سيخضع للذى أخضع له الكل كى يكون الله الكل فى الكل)(٢) . وأنه وضع نفسه خاضعا ، ومطيعا حتى موت الصليب(٣) . مع قطع النظر عن المفسرين المبالغين فى تحميل اللفظ ما لا يتحمله ، وربما كان ذلك داعى التقريب بين معنى لفظين هما أسمى ما فى الوجود ، فإذا عبر عن المسيح بأنه ابن الله فربما كان لا يريد به بنوة حقيقية وإن أعطاها معنى البنوة الحقيقية أتباع مذهبه الآتين بعده دون إرادة منه متوقعة لما يكشف عنه المستقبل عن هذه المغالات .

لكن الأمر الذى لا يمكن إنكاره ويتفق عليه الجميع هو أنه على

---

(١) ١ كو ٣ : ١٣ .

(٢) ١ كو ١٥ : ٢٨ .

(٣) فيلبى ٢ : ٨ .

الأقل وضع بذور عقيدة البنوة الحقيقية للمسيح ثم تعهدها من بعده ذووه خاصة وأن أتباع دعوته فهموا أنه يريد — وهو فهم جدير بالاعتبار — أن (السيد) هذا (المسيح) هو فوق الخليقة، وهو أقرب كائن إلى الله، ولذلك فهو إلهى بكل معانى الكلمة فى نظر بولس، ومن هنا كان الإنحدار إلى التوحيد فى الألوهية بين الله و (السيد) وهو تطور طبيعى لهذا النمو.

من الطقوس المقررة . . القربان والتعميد :

إتخذ بولس من حادثة تناول المسيح الخبز جماعة قبيل الصلب مع أصحابه شعارا لسر عظيم، كما جعله تذكرة ورمزا حيا ومرتبطا بما عاناه عيسى من الصلب فى نظر بولس وزعم أن ذلك هو ما أراده عيسى — علية السلام — .

وبذلك يكون بولس قد أدخل فى المسيحية طقسا من طقوس الوثنية ذات الأسرار، وهو طقس القربان المتمثل فى العشاء الربانى وربطه بحادثة الصلب.

كما اتخذ من الاغتسال طقسا للتعميد، وقد أعطى بولس هذا الطقس معنى زائد حيث جعل من يغتسل للتعميد كأنما ارتدى المسيح(١) قال بولس (أما أنتم الذين عمدتم فى المسيح فقد ارتديتم المسيح)(٢) وهو طقس مقتبس من طقس التضحية بثور فى عبادة الأم (سيبيل) وذلك من المؤمنين بها وليتحد مع زوجها الإله (أنيس).

والتعميد بالإغتسال يمثل فى المسيحية الدخول فيها، واستمرار

---

(١) ١كو ١١ : ٢٣ (٢) غلا ٣ : ٢٧

أو استمرار البقاء فيها وهو طقس يرمز إلى النزول إلى عالم الأموات ، فيغطس المريد فى النهر أو إناء التعميد ثلاث غطسات ثم يخرج كما خرج المسيح من القبر بعد ثلاثة أيام .

وعلى هذا يمكن القول بأن بولس بوضعه هذه التعاليم فى نشاطه وتبشيره ورسائله يعتبر بحق واضع البذور الأولى لعقائد المسيحية التى لابد أن تؤتى ثمارها ولو بلا شعور منه بما يأتى به المستقبل ، كما نستطيع القول أتباعا لبعض الباحثين بأن بولس يعتبر بحق منشىء المستقبل :

خلاصة واستنتاج :

ويمكننا أن نوجز مقومات الدعوة المسيحية ومقومات الداعى فى النقاط التالية :

١ — تتحدد شخصية بولس بأنه اليهودى الفريس الذى أحاط بتعاليم اليهودية وآدابها وشرب لبانها مع كونه الرجل اليونانى الذى نشأ فى بيئة يونانيه بما ازدحمت به من ديانات وعقائد وآداب ، ومن غير شك — وهو رحب الخيال والأفق — قد ألم بمعارف عصره سواء الدينية منها أو الفلسفية من أول أفكارها إلى آخر نتاجها على يد فيلون ، فدعا فى جرأة وقوة إلى مسيحية يحاول فيها التوفيق بينها وبين الفلسفة اليونانية والعقائد الشعبية .

٢ — إبتدع فى عرض الدعوة على غير اليهود ملكا جديداً ، فاستجاب له عدد لا يستهان به من أهل كورنفوس وغيرهم من الوثنيين ، وإنما استجابوا لدعوته لأنهم رأوا فى المسيحية القادمة عليهم إليهم على يد بولس صورة جديدة من نوع الأديان التى طالما حدثتهم وجميع اليونانيين عن المنقذين للبشرية يبعثون بعد موتهم ، وكان فى طرسوس نفسها وعدة وأتباع للديانة الأورفية ووثنيات غير خفية كان جوهر عقائدها أن الله الذى يعبدونه

قد مات من أجلهم ثم قام من قبره ، مع تشبعهم بفكرة إشتراكهم مع الآلهة فى النعمة والهبة لحياة مباركة خالدة بعد الدعاء بإيمان يقينى وطقوس صحيحة .

٣ — يميل المحققون بوجه عام إلى أن بولس هو يحق واضع اللاهوت المسيحى وهو الذى شاد صرحه بقبوله المهتدين من غير اليهود مع نبذ تعاليم التوراة والاقتصار — من تعاليم الشريعة — على أمور أربعة هى عدم أكل المخنوق وما ذبح على النصب والدم والزنا .

٤ — أنشأ لاهوتا لا يوجد له إلا أسانيد شديدة الغموض ولعل العوامل التى أوحت إليه بهذا اللاهوت هو إنقباض نفسه وما استخال من صورة المسيح فى خياله .

٥ — إستوحى لاهوته فى الأعم الأغلب من الأسطورة التى تعنى أن كل ابن أنثى يرث خطيئة أبيه الأول آدم ، ولم يكن هناك ما ينجيه وينقذه من العقاب الأبدى إلا موت ابن الله فداء وتضحية وكفارة عن الخطايا ، وقد امتلأت مصر وغيرها وتخوم آسيا بالأساطير التى تزعم التضحية من أجل كفارة الخطايا ، وكانت الفاظ المنقذ والمنجى والرب الذى أطلقها بولس على المسيح هى الألفاظ التى تطلقها الطقوس اليونانية على آلهتها .

٦ — لما ترامى إلى علمه أن المؤمنين المختتنين طلبوا من المؤمنين من الأمم أن يطيعوا الشريعة كاملة أرسل إلى أهل غلاطية رسالة تفيض بالغضب أعلن فيها إنفصاله عن المسيحيين المتهودين ، كما أعلن أن الناس لا ينجون من أجل استمساكهم بشريعة موسى بل بإيمانهم الحق بالمسيح المنقذ .

٧ — يذهب الكثير من الكتاب إلى أن مشكلة خلق العالم بواسطة

الـكلمة المتجسدة قد اقتبست من نتاج الفكر الفيلونى الذى يقول إن العالم خلق بواسطة (اللوغوس) الذى أطلق فيلون عليه مرة (ابن الله) وتارة (حكمة الله) وأخرى (كلمة). إلى آخره.

كما يميلون إلى أنها أفكار صوفية غامضة استطاع بواسطتها بولس أن ينحى المسيح الوقعى الحقيقى وأقواله وتعاليمه ليحل محله مسيح خيالى جمع التعاليم الوثنية واليهودية والفلسفية فأوعى فى جمعها حتى أصبحت مسيحية دينية ميتا فيزيقية.

٨ — لم يعد بذلك هو المسيح المنتظر المتعلق به أمل اليهود ونجاتهم بل هو الـكلمة الذى، ينجى الناس كلهم بموته ولذلك أغمض العيون عن حياة يسوع الواقعة وعن أقواله التى لم يسمعها منه مباشرة.

٩ — هـذه الأفـكار والتصورات للمسيح فى بيئته اليونانية هى التى أعدت اليونان لاستقبال بولس وتقبل دعوته، كما أعدت بولس لدعوة اليونان بنجاح كبير وللملاءمة ذلك إنطلق يفسر المسيحية تفسيراً يألفه العقل اليونانى ويرتضيه، وإستطاع أن يمزج المبادىء الأخلاقية لليهود ومافيها من قوة وصراحة بعقائد اليونان وآرائها فيما وراء الطبيعة.

١ — أبرز طقوس اليونان فى ثوب يغطى كل الألوان متوسعا فيها لـكل الديانات والعقائد السابقة حتى تلاءمت أفـكاره مع الجميع لأنه عرف حقا أن الأمم والشعوب لا يمكنها أن تتصور عيسى الذى يدعو إليه إلا إذا ألبسه ثوب آلهتهم ومنقذيهم فيظهره لهم بمظهرها ومن هنا نراه يصطنع الجميع بتلونه لهم باللون الذى يريدون وذلك حيث يقول فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس (استعبدت نفسى للجميع لأربح الأكثرين فصرت لليهود، كيهودى لاربح اليهود وللذين تحت الناموس كأنى تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس، وللذين بلا ناموس كأنى بلا ناموس، مع أنى

لست بلا ناموس لله بل تحت ناموس للمسيح لأربح الذين بلا ناموس ، صرت للضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء ، صرت للكل كل شيء لأخلص على كل حال قوما ، وهذا أنا أفعله لأجل الانجيل لأكون شريكا فيه[1]) .

١١ — بعد أن ارتفع بالمسيح إلى مرتبة الألوهية إستطاع هو بعد ذلك أن يتسامى فى مركزه الدينى إلى مرتبة الرسل الأولين بذكائه وقوة مراسه وإن لم يسايروه فى آرائه الميتافيزيقية بل أصبح فيما بعد هو رسول المسيحية الأقدس .

---

(١) ١ كو ٩ : ١٩ - ٢٣

الفصل الثاني

رحلات بولس التبشيرية

أقام « بولس » فى مسقط رأسه « طرسوس » بعد إنتقاله إلى المسيحية ثماني سنين لم يذكر التاريخ عنه شيئاً ، ولعله تأثر فى هذه الفترة للمرة الثانية فى حياته الدينية الجديدة بالتصوف السائد بين اليونانيين وما فيه من تبشير بالمسيح المنقذ كما كان متأثرا به من قبل فى حياته اليهودية .

ثم حدث البقاء بين الصديقين « بولس وبرنابا » وأخذ يعلمان الدين فى « أنطاكية » مدة سنتين (٤٣ - ٤٤) وذلك حسب طلب برنابا ، فاهتدى على أيديهما كثير من الناس حتى فاقت « أنطاكية » سائر المدن فى عدد المسيحيين ، وأغلب الظن أن الوحدانية على النمط اليهودى كانت تغلب على سمات دعوتهما آنذاك .

وكان من المهتدين فى أنطاكية عدد لا بأس به من التجار الذين انتشوا بالدين الجديد فاندفعوا بقوة إلى جمع الكثير من المال ليستعينوا به على نشر الانجيل .

رحلة التبشير الأولى :

كانت فكرة جمع المال من المهتدين المنفعلين بالدين الجديد من أغنياء « أنطاكية » دافعا قويا على إنبعاث « بولس وبرنابا » « با » لنقل الدعوة إلى المدن والقرى اليهودية المختلفة ونشر الانجيل حسب المأثور فى الظن الغالب عن فكر بولس وثقافته فمن أنطاكية وجهتهما الكنيسة للدعوه للأنجيل

وتلك هي الرحلة التبشيرية الأولى كما يحتمد التاريخ ، فتوجها إلى « قبرص» بلدة برنابا فاستجاب لهما الكثير من اليهود القاطنين بهذه الجزيرة ، وكان ذلك فى عام (٤٥ - ٤٧) ومن هذه الجزيرة أبحرا إلى « برحا » بمنفيلية ، ومرا بصعاب وأحطار كادت أن تؤدى بحياتهما لمصادفتهما طرقاً جبلية وعره ، ولكن دعوتهما لم تنجح فى الجزء الأخير من هذه الرحلة ، لأنهما بدأ ايعظان « الأمم » وهم غير يهود، مما أجر عليهما غضب اليهود المستمسكين بدينهم « فأوعزوا إلى عمال البلدية أن يخرجوهما من المدينة(١) . ومنها خرجا إلى « إيقونية » وكان مصيرهما مثل حالهما فى المدينة السابقة ، وارتحلا بعد ذلك يبشران فى « لسترة » فتجمع الجوع ورجموا بولس بالحجاره وجروه خارج المدينة ظانين أنه قد مات غير أنه لم يمت فواصلا التبشير إلى مدينة « دربى » ثم قفلا راجعين إلى « برحا » ثم إلى أنطاكية ، وهو نفس الطريق الذى سافرا منه(٢) .

وفى أنطاكية واجهتهما مشكلة عاتية تشكل عقبة فى طريق تبليغ الدعوة البولسية .

وتلك أن بعض شيوخ الكنيسة من دمشق سمعوا أن بولس يبشر غير اليهود من الأمم ، ويقبل المهتدين منهم مع إعفائهم من الختان فى نظر اليهود والشريعة اليهودية يشكل رمزا مقدسا لعهد الله الذى عاهد عليه إبراهيم عليه السلام .

ولهذا كانت جريمة كبرى تقع من بولس أن ينكث هذا العهد فى دعوته هذه ولكن البشير بولس رأى أن الدعوه لو اختصرت على أرباب الختان

---

(١) أعمال ١٤ : ٤ ، ٥

(٢) أعمال ١٤ : ١٩ - ٣٨

سوف لا يقبلها إلا عدد ضئيل محصور فى جماعة اليهود ولا تلبث أن تتلاشى بعد قليل من الزمن ، بيد أن بولس يريد لدعوته البقاء والدوام ، ولا يتحقق ذلك إلا إذا قبلتها الأمم وقبلتهم الكنيسة أيضاً ، ومن هنا يبدأ المنطلق إلى عمومية الدعوة إلى كل البشر بدلا من إختصاصها لبنى إسرائيل .

ولذلك نرى بولس يسافر إلى أورشليم ليعرض الأمر على الرسل والمشايخ أهل الحل والعقد فى الكنيسة الجامعة مع استقصاء البحث فى هذه النظرية المهمة والخطيرة فى الوقت نفسه ، إذ عليها سوف يتحدد مصير دعوة المسيح عليه السلام ومستقبلها .

قرار مجمع أورشليم فى هذا الشأن :

يعتبر هذا المجمع هو الأول فى تاريخ الكنيسة ، وبعد أن اجتمع الرسل والمشايخ لينظروا فيما عرضه عليهم بولس من عرض الدعوة على غير اليهود توقف « يعقوب » كثيراً واستحسن القديس «بطرس» رأى بولس ، وإنتهى أمر المجمع هذا كما يذكر صاحب سفر الأعمال على أن يقبلوا المهتدين من الأمم فى أنطاكية وسورية وكيليكية ولكن بعد أن يقلعوا عن أربعة أمور هى : الزنى وأكل المخنوقة والدم وما ذبح على النصب ، وكان برنابا يصحب بولس فى كل ذلك حسب رواية سفر الأعمال ، ويعتبر هذا أول مجمع بعد المسيح عليه السلام كما قررت قبل قليل .

ويسجل سفر الأعمال هنا أنه بعد ما حصلت مباحث كثيرة فى المجمع الأورشليمى كان أبرز المتكلمين فيه الحواريان بطرس ويعقوب ، كما تكلم بولس وبرنابا عما وجداه من سرور الأمم بالاعفاء من الناموس وسرورها بمن آمن من الأمم بواسطتهم وهذا هو نص القرار :

« وكتبوا بأيديهم هكذا . الرسل والمشايخ والأخوة يهدون سلاما إلى

الأخوة الذين من الأمم فى أنطاكية وسورية وكاليلية ، إذ قد سمعنا أن أناسا خارجين من عندنا أزعجوكم بأقول مقلبين أنفسكم وقائلين أن تختتنوا وتحفظوا الناموس الذى نحن لم نأمرهم ، رأينا وقد صرنا بنفس واحدة أن نختار رجلين ونرسلهما إليكم مع حبيبينا برنابا وبولس ، رجلين قد بذلا أنفسهما لأجل اسم ربنا يسوع المسيح ، فقد أرسلنا يهوذا وسيلا وهما يخبرانكم بنفس الأمور شفاها ، لأنه قد رأى الروح القدس ، ونحن أن لا نضع عليكم ثقلا أكثر غير هذه الأشياء الواجبة أن تمتنعوا عما ذبح للأصنام وعن الدم والزنا التى إن حفظتم أنفسكم منها فنعما تفعلون ، كونوا معافين)(١) .

وإن الذى يلفت النظر هنا فى دهشة هو أن يوافق على هذا القرار القديس « بطرس » وهو رئيس الكنيسة والذى أنابه المسيح عنه فى رئاسة الحواريين ، وجعله أس الكنيسة وقاعدتها فقال له « أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابنى كنيستى »(٢) .

وإنا لا ندرى كيف غاب عن بطرس هذا الأمر حتى يعرفه بولس ، وكيف أن صغار المسيحيين من اليهود لم يقبلوه لما يجدون فيه من مخالفة صريحة لتعاليم المسيح ويقبله بطرس نائب رأس الكنيسة ؟

ربما لأن المسيح ألقى إليه بزمام الأمور ، فأعطاه مفاتيح ملكوت السموات فكل ما يربطه على الأرض يكون مربوطا فى السموات وكل ما يحله على الأرض يكون محلولا فى السموات »(٣) فشعر أن بيده نقض تعاليم المسيح بالكلية أو بعضها على حسب مقتضى الحال بناء على

---

(١) أ ع ١٥ : ٢٣ — ٢٩ .

(٢) متى ١٦ : ١٨ .
(٣) متى ١٦ : ١٩ .

هذا التفويض فيتجرأ على تعاليم سيده ليجعل (كل الأشياء لكل الناس) كما هو يصريح مذهب بولس ، أو لعل الموافقة على هذا القرار من بطرس أمر مدسوس عليه من كاتب سفر الأعمال ، أو لعل ما ينطوى عليه القديس بولس من قوة فى الذكاء وبراعة فى الحيلة ونشاط قوى يستطيع به أن يستولى على مشاعر سامعيه أن يقنع القديس بطرس بنظريته تلك فوافق على هذا القرار الخطير .

على أن هذه النتيجة الخطيرة تأولها بولس نفسه بحذر ولم يبت فيها بالسهولة التى نتصورها ، ولكن بعد أن نبت غرسها وعمق جذرها بنشاطه وبراعته ، فقد أقبلت من أورشليم إلى أنطاكية طائفة من المسيحيين اليهود المتمسكين بدينهم ورأت بطرس يأكل مع الأمم وهم كفرة فى نظر المستمسكين بدينهم من المسيحيين اليهود فأقنعوا بطرس ومن معه من المختتنين المسيحيين عن المهتدين غير المختتنين ، ولكن النص البولسى لم يبين لنا ما هو موقف بطرس من هذه المفاجأة ، ولكن بولس يخبرنا فى رسالته أنه وجه إليه اللوم مواجهة فى أنطاكية واتهمه بالرياء أمام الجميع »(١) .

ولكننا فى نهاية القول نستطيع أن نقول : إن بطرس وافق بولس فى المجمع المذكور ، ويترتب على هذا القرار الخطير أنه لم يكن شيئاً محذوراً على الناس كافة سوى الأربعة التى أسفر عنها القرار المذكور أى أن « كل الأشياء لكل الناس » كما انتهى إليه المذهب البولسى كما تقرر سابقاً ، بل لقد أطلق بطرس عنان الشريعة على مصراعيه فأباح للناس أكل الوحوش والزواحف وطيور السماء دون استثناء وهوام الأرض ودوابها ، وكان ذلك أثر جوع شديد ألم به وفى حالة ثوران شهوته غاب عن نفسه فرأى أنه يطعم كل الأنواع المذكورة بأمر الرب وخطاب منه ، ولما أراد أن يمتنع عن الأكل من هذه المائدة التى تحتوى طعاما دنسا كما قرر فى اعتراضه على الرب نهره ثلاثا بأن ما طهره الرب لا تدنسه أنت »(٢) .

---

(١) غلاطية ٢ : ١١ — ١٤ . (٢) أع ١٠ : ١٠ — ١٦ .

وبذلك يكون كل شيء حلالا دون استثناء ، وهكذا كان الوحى والروح القدس طوع القديسين وفى خدمة رغباتهم حتى ولو كانت جسدية تطلب الطعام لسد رمق الجوع .

وإنه لمما يدهش له أن سفر الأعمال يحكى عن بطرس بأنه رأى رؤيا أخرى اقتنع على أثرها أن عليه أن يقبل المهتدين من الوثنيين واليهود على السواء ، ثم اقتصر من ذلك الوقت على تعميد المهتدين من غير اليهود بدل أن يعمدهم ويختنهم إلا عدداً قليلا ، وكما يقول « أما أنا فقد أرانى الله ألا أقول عن إنسان ما إنه دنس أو نجس »(١) .

كما قال أيضاً : « بالحق أنا أجد أن الله لا يقبل الوجوه بل فى كل أمة الذى يتقيه ويصنع البر مقبول عنده »(٢) .

ويحق لنا بعد بيان ذلك أن نقول : إن بولس وبطرس قد شادا نظام الكنيسة المدهش الذى بلغ حداً يثير العجب من تعاونهما المنسق .

---

(١) أع ١٠ : ٢٨

(٢) أع ١٠ : ٣٤ ، ٣٥ .

رحلة التبشير الثانية :

يرجح التاريخ أن القديس بولس قام برحلته التبشيرية الثانية في عام (٥٠م) واستمرت إلى عام (٥٣) تقريبا ، وكان يصطحب معه صديقه الداعية (برنابا) وحدث أن اختلفا أثناءها بسبب اصطحابهما (مرقس) الإنجيلي إلى المدن التي ناديا فيها بالدعوة ، فإن بولس رفض اصطحاب (مرقس) بحجة أنه لم يصحبهما في رحلة بمفيلية (رحلة التبشير الأولى) وانفصل عنهما حينذاك ، لكن كاتب سفر الأعمال لم يبين لنا سبب انفصاله ، أهو بسبب عدم اتفاقهما على المبادىء التي يبشران بها أم لسبب آخر ؟ لا ندري .

ولكن الذي يتقرر هنا هو أن برنابا رغب في اصطحاب (مرقس) لأنه ابن أخته وتشاجر مع بولس من أجل ذلك وهنا افترقا ، ولكن برنابا قد اختفي وقتئذ في قبرص موطنه الأول. وإلى هنا أغفل التاريخ ذكره[1] .

أما بولس فقد انطلق وحده يبشر في مدن آسيا الصغرى التي بها بني ملته ، وبينما هو في « لسترا » ضم إليه تلميذا يدعى (تيموثاوس) وهو ابن امرأة يهودية وأبوه يوناني أحبه بولس حبا شديدا إذ وجد فيه طلبته ، فقد كان متشوقا إلى رفيق يحبه وكان (تيموثاوس) صاحبه في هذه الرحلة التي اجتازا مدينة « فريجيا » و « غلاطية » واتجها شمالا إلى « ترواس »[2] وفي هذه المدينة تعرف بولس على « لوقا » الذي كان قد اعتنق اليهودية وهو من الأمم .

ثم أبحر بولس وتيموثاوس وثالث يدعى « سيلا » من ترواس إلى « مقدونية » ثم إلى « فليبي » وهي مدينة أوربية ، وهي أول مرة تطأ قدمه

(١) أعمال ١٥ : ٢٦ — ٣٩ .
(٢) أع ١٦ : ١ — ٨ .

أرضا أوربية ، ولكنه فى هذه المدينة قبض على بولس وثيموثاوس وسيلا وأودعوا السجن ثم أفرج عنهما بعد ما عرف أنهم روما نيون(١) .

ومن فليبى انتقلوا إلى تسالونيكى وظل بولس يخطب فى مجمعها اليهودى ثلاث سبوت حتى استطاع أن يؤسس فيها كنيسة مسيحية ، ولكن هناك من مواطنى تسالونيكى من ألبوا عليه المواطنين بتهمة دعوته لملك جديد هو « يسوع » مما اضطر أصدقاؤه أن يخرجوه ليلا إلى « بيريه » ، وهو إن تقبل دعوته فيها نفر قليل إلا أنه خرج منها أيضا بتهمة عدائه لليهودية التى يهمل تعاليمها ويعفى المهتدين على يديه من كل تكاليفها ، وقد خرج منها وحيدا ذليلا على ظهر سفينة من السفن التى أبحرت به إلى أثينا ، ولم تكلل دعوته بالنجاح الذى كان ينتظره فى هذه المرة أيضا(٢) .

ولكنه حين يهبط فى أثينا يجد نفسه فى قلب الديانة الوثنية ومختلف تشكيلها وعلومها ومذاهبها الفلسفية من أبيقورية ورواقيه وغيرهما وألفى نفسه بلامعين ولا رفيق. ولما لم يكن فى أثينا من اليهود إلا نذر يسير يمكن أن يستمعوا إلى مواعظه فلم يجد بدا من أن يقف خطيباً فى السوق العامة كأى خطيب يريد أن يتحدث إلى الجماهير منافساً العشرات من خطباء أثينا آملا أن تتمكن دعوته من الوصول إلى آذان الناس ، لكنه كان هناك من الناس كما يقول سفر الأعمال من يسخر منه ومن فكره ويتساءلون قائلين « ترى ماذا يريد هذا المهذار أن يقول ؟ » ومنهم من كان يناقشه فيما يقول ، وآخرون فضلوا أن يستمعوا له ولكن ليس فى السوق حيث الضوضاء والغوغاء فأخذوه إلى مكان هادىء يمكن أن يستوعبوا فيه كلامه يسمى « أريوس باغوس » وحينئذ قال لهم :

---

(١) أع ١٦ : ١١ — ٣٩ .
(٢) أع ١٧ : ١ — ١٥ .

إنى رأيت وأنا مار فى أثينا مذبحاً عليه نقش لإله مجهول ، وأغلب ظنى أن هذا النقش يعبر عما يختلج قلوب من نقشوه من رغبة فى التسبيح بحمد إله لا يعرفون على وجه التحقيق اسمه ، وربما يريدون استرضاءه أو أنهم كانوا يطلبون معرفته ، وهذا دليل على اعترافهم بجهلهم حقيقة هذا الإله ، ثم ربط بولس بمهارته هذه الفكرة بما يريد أن يلقيه إليهم عن فكرته هو عن ذلك الإله دعياً لهم إلى معرفته فخاطب قائلا :

فالذى تتقونه وأنتم تجهلونه هذا أنا أنادى لكم به ، الإله الذى خلق العالم وكل ما فيه ، هذ إذن هو رب السماء والأرض لا يسكن فى هياكل مصنوعة بالأيادى . . . هو يعطى الجميع حياة ونفساً وكل شىء . . . وصنع من دم واحد كل أمة من الناس . . . لكى يطلبوا الله لعلهم يلتمسونه فيجدونه مع أنه عن كل واحد منا ليس بعيدا لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد ، كما قال بعض شعرائكم أيضا ، لأننا أيضا ذريته ، فإذ نحن ذرية الله لا ينبغى أن نظن أن اللاهوت شبيه بذهب أو فضة أو حجر نقش صناعة واختراع إنسان ، فالله الآن يأمر جميع الناس فى كل مكان أن يتوبوا متغاضيا عن أزمنة الجهل ، لأنه أقام يوما هو فيه مزمع أن يدين المسكونة بالعدل برجل قد عينه مقدما للجميع إيمانا إذ أقامه من الأموات »(١) .

وهنا نجد القديس بولس يحاول فى جرأة منقطعة النظير أن يوفق بين المسيحية وبين ما يراد من نقوش على آلهة وثنية تعبر عن عقائد وثنية صرفة صنعتها الفلسفة اليونانية ، ولقد قفى آثاره من بعده دعاة المسيحية فى العصور التالية له كما هى ملاحظات الثقات من المحققين وكما أثبته تاريخ الكنيسة المتتابع ، ولعلنا نلحظ هنا أن صاحب هذه الخطبة متضلع بارع فى تأدبه بالأدب اليونانى .

---

(١) أع ١٧ : ١٦ — ٣٤ .

فى حين أننا حين نقرأ نهاية السفر السابع عشر من الأعمال نتبين أن المستمعين له لم يتأثروا بقوله ، لأن سوق أثينا الأدبى قد حشى آذانهم بالكثير من أمثاله، ولذلك لم يلق منهم إلا عدم الاهتمام به أو السخرية من قوله ، لهذا غادر بولس أثينا فى حالة كثيفة من اليأس إلى كورنثة(١) التى أقام بها سنة ونصف سنة (٥١ — ٥٢ م) يكسب قوته فيها بصنع الخيام وهى صنعته وصنعة أبيه ، وكان يخطب فى مجمعها كل سبت ، ولكن الناس كانوا يقاومونه ويجدفون عليه حتى نفض ثيابه متبرأ منهم فى غضب معلناً أنه سيبيت دعوته إلى الأمم ، ولكن اليهود قدموه إلى « غاليون » الحاكم الرومانى متهمين إياه بأنه يستميل الناس على أن يعبدوا الله بخلاف الناموس، ولكن « غاليون » طردهم من محكمته قائلا : لست أشاء أن أكون قاضيا لهذه الأمور ، وأخذت الطائفتان تتصارعان وتتنابذان حتى ضرب اليهود رئيس المجمع قدام كرسى الحاكم ، ولكن «غاليون » لم يهمه شىء من ذلك، إذ ما دام الصراع بعيداً عن سلطة القيصر وحكمه لم يهتم الحكام بأى أمر آخر .

ولكن سفر الأعمال يحدثنا بأن بولس كسب مؤمنين كثيرين من غير اليهود من أهل كورنثة .

ولعل السبب فى تقبلهم لدعوته سريعا أنهم مزجوها بعقائدهم فى الأديان القديمة ووافقهم عليها بولس ، وبعد هذا الكسب الطيب فى كورنثة انتقل بولس منها إلى أورشليم (٥٣ م) ليسلم على الإخوة هناك(٢) .

---

(١) أع ١٨ : ١ .

(٢) أع ١٨ : ١ — ٢١ .

رحلة التبشير الثالثة :

لم يمكث بولس في أورشليم وقتا كثيرا حتى بدأ سفره للمرة الثالثة من أجل التبشير بالمسيحية ، وزار الجماعات المسيحية في أنطاكية وآسيا الصغرى وأخذ يشد عزم تلاميذه بثقته القوية وحماسه الملهب ، ومكث في إفسس مدة عامين ثبت تلاميذه أمام الجمهور أمام الشامتين والخارجين على دعوته ، ويقول سفر الأعمال التاسع عشر إنه أتى بأمور جعلت الناس يعتقدون أنه يصنع معجزات ويخرج شياطين ، وكان يشاركه في إخراج الشياطين أناس أخرون بتأثير عزائم كانوا يطوثون ويخرجون بها الأرواح الشريرة .

ويبدو أنه ندد بعابدي الأوثان فأحس صانعو التماثيل التي كانت توضع في هيكل « أرطيس » إلهة أفسس العظيمة ، مما دعا رجلا يدعى « دمتريوس » أحد صانعي التماثيل الفضية التي كانت توضع في ضريح « أرطيس » إلى أن يقود مظاهرة ضخمة احتجاجا على بولس ودينه الجديد الذي يحارب رزقه ورزق العاملين في مهنته مثيراً حقد الجمهور حفاظا على عظمة الإلهة « أرطيس » التي هي معبودة كل آسيا فضلا عن الدفاع عن مورد أرزاقهم من صناعة التماثيل . فسار هذا الرجل على رأس جماعة من اليونان وقد امتلأوا غضبا وطفقوا يصرخون قائلين : (عظيمة هي أرطاميس الأفسيسيين) ومكثوا على ذلك ساعتين حتى تمكنوا من خطف رفيقي بولس . إلا أنه تمكن أحد موظفي المدينة من فك أسرهما وتفريق هذا الجمع الحاشد بعد أن خطبهم وهدأ ثائرتهم .

وكان لا بد أن يستعمل بولس الحكمة في هذا الوقت ، فرحل عن أفسس إلى مقدونية (١) .

---

(١) انظر الأصحاح ١٩ من الأعمال .

وأقام فى فليبى وتسالونيكى وبيرية عدة أشهر بين الجماعات التى أعدها فى هذه البلاد ، ولكنه سمع أثناء ذلك بشقاق عظيم بين جماعة فى كورنثة فأرسل إليهم عدة رسائل يعنفهم على فسادهم وانشقاقهم . ولكن لم تطاوعه نفسه حتى انتقل إليهم بنفسة سنة ٥٦ م ليدافع بشخصه عن نفسه أمام الذين يتهمونه هناك ويذمونه قائلين :

إنه كان يسترزق مما كان يلقيه من عظات أمام الأمم والجماهير . كما كانوا يسخرون مما كان يقص عليهم من رؤى يراها فى بعض نشواته ويحدثهم عنها .

ثم إن الجميع فكروا فى أن يقوموا عقيدتهم ويصححونها بالعودة إلى الاستمساك بالشريعة الموسوية .

ولما حضر إلى الثائرين عليه ذكرهم بأنه كان يأكل من عمل يده فى صنع الخيام ، وأما الكسب المادى الذى حصله من نشاطه فى الدعوة ، فذكرهم بأنه عبارة عما لاقاه فى أسفاره من جلده سبع مرات ، ورجمه مرة ، وتحطيم السفينة به ثلاث مرات مما عرضه كثيراً للغرق. زد على ذلك ما كان يلقاه من أخطار اللصوص وتهيج الجماهير عليه فى البلاد المختلفة .

وكما هى العادة من عودة الإنسان إلى الصواب إذا ما اندمج فى الضلال فقد نقض جماعة المختتنين [المسيحيون اليهود] اتفاق أورشليم ، وذهبوا إلى غلاطية ليطالبوا المؤمنين بإطاعة الشريعة اليهودية إطاعة كاملة محاولين بذلك تصحيح عقائدهم ومبينين فساد ما يدعوهم إليه بولس .

وهكذا نرى انفجارات وتحديات تقابله فى كل مكان يدعو فيه أو يغادره ويذهب إلى غيره ، مما يدلنا دلالة قاطعة أن هدايته للناس ودعوته للأمم أن يهتدوا على طريقته كانت دعوة على غير الطريق المستقيم !

ولكنه لما ترامى إلى علمه نبأ هذه المحنة وخبر تلك النكسة كتب إلى أهل غلاطية رسالة تفيض بالغضب أعلن فيها انفصاله تماما عن المسيحيين من اليهود ، ثم أعلن منهجه فى هذه الرسالة بصراحة وقوة ، وهو أن الناس لا ينجون أمام الله باستمساكهم بشريعة موسى ، وإنما بإيمانهم بالمسيح المنقذ ابن الله ، بشرط أن يظهر هذا الإيمان على حياتهم وسلوكهم .

ثم ليت شعرى ما هو السلوك الذى يظهر الإيمان به ما دام قد حط عن الناس التكليف بالأعمال ، وعلى كل لقد سافر بعد ذلك إلى أورشليم وكأنه قد أحس بأن دعوته قد فضت من حوله كل منصف وصديق فكان يقول : إنه ينتظرنى هناك أشد المحن والبلايا(١) .

وكان هذا نهاية رحلات بولس التبشيرية .

ولما عاد إلى أورشليم سنة ٥٧ م استقبلته الكنيسة استقبالا طيبا(٢)، ويبدو أن التلاميذ فيها قد ألفوا من بولس دعوته ونشاطه الجديد ، ولكنهم مع ذلك يوقنون بأنه مخالف لأصل الدين ، فأسدوا إليه تحذيرا فى صورة نصيحة فقالوا له :

« أنت ترى أيها الأخ كم يوجد ربوة من اليهود الذين آمنوا وهم جميعا غيورون للناموس ، وقد أخبروا عنك أنك تعلم جميع اليهود الذين بين الأمم الارتداد عن موسى قائلا ألا يختنوا أولادهم ولا يسلكوا حسب العوائد . . . سيسمعون أنك قد جئت فافعل هذا الذى نقول لك ، عندنا أربعة رجال عليهم نذر ، خذ هؤلاء وتطهر معهم ، وأنفق عليهم ليحلقوا رؤوسهم ، فيعلم الجميع أن ليس شيء مما أخبروا عنك ، بل تسلك أنت أيضا حافظا للناموس(٣) .

---

(١) أ ع ٢٠ : ٢٢ ، ٢٣ . (٢) أ ع ٢١ : ١٧

(٣) أ ع ٢١ : ٢٠ — ٢٤ .

فقبل بولس هذه المشورة ، وفعل ما أشير عليه به ، فأجرى طقوس التطهر ، ولكن اليهود حين رأوه فى الهيكل أهاجوا كل الجمع عليه ورفعوا أصواتهم قائلين : « هذا هو الرجل الذى يعلم الجميع فى كل مكان ضدا الشعب والناموس » وظنوا أنه أدخل الهيكل بعض اليونانيين فدنسه بذلك ، ثم أمسكوا به وجروه خارج الهيكل وأنهالوا عليه ضربا يبغون قتله ، ولكن رئيس العسكر فى أورشليم أسرع إليه حين علم بهذا الاضطراب فقبض عليه وأنقذه من الجمهور أن يقتله(١) .

ولما أمر ضابط العسكر بجلده أعلن بولس كعادته أنه يتمتع بحق المواطنة الرومانية فكف عن جلده(٢) .

ثم جيء به فى اليوم التالى أمام المجمع الدينى لمحاكمته . فعرف بشخصه وقال : إنه فريسى وابن فريس . ولكن المعادين له ولتعليمه حاولوا للمرة الثانية أن يعتدوا عليه فأمر الأمير أن ينقل إلى المعسكر حفاظا على حياته حتى تتم محاكمته . وفى الليلة التالية جاءه ابن أخت له يحذره ويقول : إن هناك أربعين من اليهود قد أقسموا ألا يأكلوا ويشربوا حتى يقتلوك .

وخشى الضابط المكلف أن يحدث فى المدينة اضطراب يودى بحياة بولس فأرسله إلى « فيلكس » وإلى قيصرية وسط حراسة مشددة(٣) .

وبعد خمسة أيام من ترحيله جاءه حنانيا رئيس الكهنة والشيوخ من بيت المقدس ليحاكموه فى قيصرية ، وكانت دعواهم : أنه مفسد ومهيج

---

(١) أع ٢١ : ٢٧ — ٣٦
(٢) أع ٢٢ : ٢٢ — ٢٩
(٣) أع ٢٣ : ٦ — ٢٤ .

الفتنة بين جميع اليهود الذين فى المسكونة ، وأنه يستقدم شيعة الناصريين كما ينجس الهيكل بدخول الأمميين .

ثم أذن الوالى « فيلكس » له بالدفاع عن نفسه ، فأقر أولا بما نسب إليه من الدعوة إلى دين جديد فقال « ولكننى أقر لك بهذا أنى حسب الطريق الذى يقولون له شيعة .

ثم أضاف إلى ذلك قوله : « أعبد إله آبائى مؤمنا بكل ما هو مكتوب فى الناموس والأنبياء ، ولى رجاء فى الله فيما هم ينتظرون أنه سوف تكون قيامة للأموات الأبرار والأثمة »(١) .

ولما سمع « فيلكس » الوالى ذلك طرد الشاكين عليه وأبقاه تحت الحراسة على ألا يمنع أحد من أصحابه أن يخدمه أو يأتى إليه ، واستمر على ذلك مدة سنتين كاملتين (سنة ٥٨ — ٦٠) .

ويقول كاتب سفر الأعمال بأن فيلكس كان يريد أن يحصل منه على رشوة ليطلق سراحه(٢) .

ولعلنا نلاحظ هنا أنه عندما يحق عليه الحكم ينطق بخلاف ما يعتقد ، فهو يدعى أنه يؤمن بكل ما هو مكتوب فى الناموس والأنبياء ، وسوف نرى أنه يرفض هذا المعتقد عما قريب ، كما رفضه كثيرا فيما مضى من مواقف .

وبعد اكتماله فى الحبس سنتين خلف فيلكس على قيصرية حاكما آخر يدعى « فستوس » فأراد « فستوس » أن يحاكم بولس أمامه فى

---

(١) أع ٢٤ : ٥ — ١٦ .
(٢) أع ٢٤ : — ٢٢ — ٢٦ .

أورشليم ، ولكن بولس خاف من الشعب الثائر عليه حيثما وجده . فطلب أن يحاكم أمام القيصر نفسه باعتباره مواطنا رومانيا وله الحق في ذلك . وصادف أن الملك « أجربا » كان يمر بعد أيام بقيصرية ، فاستمع « فستوس » إلى بولس مرة ثانية وهو ماثل بين يديه بحضور « أجربا » وفى النهاية وصفه فستوس بإباهة ذيان والتحريف من خلال ما يقول ويعلم(١) .

ونظراً لأن بولس طلب محاكمته أمام القيصر أركبوه سفينة تجارية أبحرت به إلى إيطاليا ، ولكنها قضت فى البحر زمنا طويلا أدركتها أثناءها عاصفة شديدة استمرت أربعة عشر يوما تحطمت فيها السفينة على صخور مالطة قبل أن تصل إلى رومة ، ونجا كل من عليها إلى الشاطىء بالسباحة أو بالدفع على الألواح(٢) .

ولم يصل بولس إلى إيطاليا إلا بعد ثلاثة أشهر(٣) .

وحين وصل إلى رومة تسلمه رئيس المعسكر ، وأقام فى حراسة قوية ولكنهم ترفقوا به ، فكان اعتقاله فى بيت اختاره لنفسه ، وانتظروا حتى يأتى الشاكون عليه من فلسطين ويمثل أمام محكمة القيصر الذى كان (نيرون) آنذاك ، واستمر على ذلك سنتين ، كان يأتيه فيها بعض اليهود الذين يشكوا إليهم حاله ولكنهم قالوا له : إن مذهبك هذا يقاوم فى كل مكان ، مها حدا به أن يشرحه لهم وهم يستمعون إليه .

وفى النهاية انصرفوا من عنده وهم غير متفقين معه على مذهبه وغير راضين عنه لأنهم رأوا أنه يعتقد النجاة من غير ضرورة لمراعاة الناموس

---

(١) أع ٢٥ .
(٢) أنظر وصف الرحلة فى أعمال ٢٧ .
(٣) أع ٢٨ : ١١

اليهودى وهو عندهم عماد حياتهم ، فلذلك تولوا عنه مدبرين ، ولكنه ناداهم قائلا « فليكن معلوما عندكم أن خلاص الله قد أرسل إلى الأمم وهم سيسمعون »(١) .

وأغضب بذلك منه الجماعة اليهودية المقيمة فى رومة ، لأن يهود رومة كانوا يفضلون المسيحية القادمة إليهم من أورشليم ، وكانوا يختنقون على على حسبها ، وكانت رومة لا تفرق بين يهود رومة وبين اليهود الأصليين ، ولذلك كان ترحيبهم بپطرس فى حرارة أما بولس فقوبل منهم بفتور .

* * *

(١) أ ع ٢٨ : ٢٨ .

الفصل الثالث

تحقيق لمعنى البنوة

إن أتباع المسيح يتمسكون فى دعواهم أنه المسيح ابن الله على الحقيقة ببعض نصوص وردت فى الإنجيل تسميه أو تدعوه بالابن الحبيب والابن الوحيد ، ومن هذه البنوة المزعومة يتسلقون إلى القول بألوهته مع أن هذا الاطلاق معارض بإطلاق أن الإنسان عليه فى نفس الإنجيل ، كما أطلق عليه ابن داود ، وغاب عنهم أن بعض الأنبياء أطلق عليهم أنهم أبناء الله مثله ، وبذلك يكون المسيح قد شاركه غيره . فى هذه الصفة التى كانت منطلق الزيغ العقدى لأتباعه والمنتمين إلى دينه . ونعرض هنا إطلاقات البنوة على غيره من الأنبياء والمؤمنين مؤيدة بالنصوص المستمدة من الكتاب المقدس الذى يدين به المسيحيون .

فآدم أبو البشر ـ عليه السلام ـ يطلق عليه أنه ابن الله كما جاء فى إنجيل لوقا قال : [آدم ابن الله(١)] وهو بهذه الصفة أولى وأجدر لأنه لا أب له ولا أم ، وكذلك حواء أم البشرية فلا أب لها ولا أم على القول بأنها خلقت من نفس ما خلق منه آدم ، أى من نفس التراب وهو المادة الوحيدة التى نخلق منها آدم ومرت بنفس الأطوار التى مر بها ، أو أنها خلقت من ضلع من أضلاعه على القول الآخر (خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ...(٢)) والمهم أنها لم تخلق على الطريق الطبيعى الذى خلقت على منواله سائر الذرية .

---

(١) لوقا ٣ : ٣٨ (٢) النساء : ١

ونبى الله يعقوب (إسرائيل) استحق هذه الصفة المكرمة ، تقول التوراة (هكذا يقول الرب : إسرائيل ابن البكر[١]) وإذا سرنا سيرتنا متتبعين سلسلة الأنبياء إلى نبى الله داود عليه السلام نجد الله يدعوه بقوله : (أنا أيضا أجعله بكرا أعلى من ملوك الأرض[٢]) ودعى أفرايم أيضا بالابن البكر[٣] .

ونظراً لأن البكر لايتعدد فقد دل ذلك على تشريف وتعظيم المقول فى حقهم ، وعلى هذا فيكون الأب بمعنى الله والابن بمعنى الرجل البار ، وقد بين السيد المسيح نفسه هذا المعنى بقوله فى خطاب منه لتلاميذه (أنى أصعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم[٤]) فنراه قد فسر الأب بالإله وسوى بينه وبين التلاميذ فى أبوة الله وإلاهيته لهم .

وهذا نبى الله داود ـ عليه السلام ـ يترنم فرحا ببنوة الله عز وجل فيقول : (إنى أخبر من جهة قضاء الرب ، قال لى أنت ابنى أنا اليوم ولدتك[٥]) مع ملاحظة أن المسيح كان يدعو نفسه دائما بأنه ابن داود[٦] كما دعاه أصحابه أيضا بتلك البنوة[٧] فليت شعرى أيكون المسيح إبنا لله أو لداود ؟

وإذا كان إبناً لداود ، وداود ابن الله فهل يصبح الله جداً للمسيح ؟ ثم نجد التوراة تردد أن سليمان ابن داود هو الآخر ابن الله ، فجاء فى أخبار الأيام الأولى أن الله يدعو نبيه سليمان ـ عليه السلام ـ بقوله : (هو يكون لى وأنا له أبا[٨]) فهؤلاء الأنبياء قد أطلق عليهم أنهم أبناء الله كما أن عيسى

---

(١) خروج ٤٥ : ٢٢ ، ٢٣ — (٢) مزمور ٨٩ : ٢٧
(٣) أرمياء ٣١ : ٩ — (٤) يوحنا ٢٠ : ١٧
(٥) مز ٢ : ٧ — (٦)
(٧) متى ٢٢ : ٤٢ — (٨) أخبار الأيام الأولى ٢٢ : ١٠

ابن الله ، فهل نستطيع أن ندعى أن بنوتهم لله عز وجل قائمة على النسب بينهم وبين الله ، أو أن بنوتهم له بنوة خاصة كبنوة المسيح لله المدعاة من المسيحيين؟ أم نعتقد أن معنى هذه البنوة للجميع إنما معناها بنوة بمعنى القرب من الله بالإيمان القويم والوصل به بالقول الطيب والعمل الصالح ؟

إن الاعتقاد الصحيح فى ذلك هو أن البنوة لله إن كان لابد من أن نعتقد ذلك المعنى هو أن تكون البنوة بنوة طاعة لله رب العالمين ، وقرب منه ، ولجوء إليه ، وأن تحقق كل مبادىء الدين الآتى به رسل الله عليهم صلوات الله أجمعين .

يرجح هذا المعنى ما جاء التعبير به فى الإنجيل من جعل ابن الله مكان البار ، والبار مكان ابن الله مما يدل على أن المراد ببنوة الله البر والصلاح ، والعكس كذلك صحيح ، فهذا إنجيل مرقس ينطق بالثناء على يسوع بعد موته بأنه ابن الله فيقول : (ولما رأى قائد المائة الواقف مقابله أنه صرخ هكذا وأسلم الروح قال حقا كان هذا الإنسان ابن الله ...(١)) .

ويقول لوقا فى نفس المشهد ناقلا قول قائد المائة (بالحقيقة كان هذا الإنسان باراً ...(٢)) .

فكان هذا ثناء عليه بالبر والصلاح كأنه ابن الله كما قال مرقس فى النص السابق .

وإذا تجاوزنا ما جاء فى حق الأنبياء من إطلاق إسم البنوة عليهم إلى سائر الناس نجد أنهم قد أطلق عليهم أنهم أبنـــاء الله أيضا كسائر الأنبياء ، فجاء فى التوراة (أنتم أولاد للرب إلهكم(٣)) .

والكتب المقدسة تؤكد فى كل مساراتها أن صلة الآب بالأبناء ليست

---

(١) مرقس ١٥ : ٣٩ (٢) لوقا ٢٣ : ٤٧

(٣) تثنية ١٤ : ١

مبنية على التسلط أو التجبر أو الاستعباد أو المذلة ، بل هى مبنية على الحب والعطف والمودة . يقول بولس فى رسالته إلى أهل رمية (كل الذين يتقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله ، إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضا للخوف بل أخذتم روح التبنى ...(١) وكذلك يوحنا يبين لنا أن هذه البنوة التى قد تساوى فيها جميع الناس من أنبياء بما فيهم المسيح عليه السلام والملائكة وسائر الناس إنما هى بنوة بالروح ، فهى روحية وهى مجازية تحصيلها إنما يكون بالأعمال التى يتقرب بها إلى الله ، فليست بنوة نسبية ولا تنـــاسلية ولا جسدية ، كما أن الذين ينحرفون عن الحق إلى الزيغ والضلال ويتخذون العقيدة الإلهية هزواً ولعباً هم أبناء إبليس ، فجاء فى إنجيل يوحنا فى محادثة بين المسيح واليهود (أنتم تعملون أعمال أبيكم ، فقالوا له إنا لم نولد من زنا لنا أب واحد وهو الله ، فقال لهم يسوع لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى ... أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا ، ذاك كان قتالا للناس من البدء ولم يثبت فى الحق لأنه ليس فيه حق متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم مما له لأنه كذاب وأبو الكذاب ...(٢)) .

فقد ادعى اليهود أن أباهم واحد هو الله ولكن المسيح نفى ذلك عنهم ، وادعى بنوتهم للشيطان لأنهم عصاة باتباعهم له فليسوا صالحين حتى يستحقوا البنوة لله . فكل هذه الاتجاهات تعطينا أن معنى البنوة لا تكون إلا بالحمل على المجاز لا الحقيقة. وإذا قرأنا إحدى رسائل يوحنا نجده يزيد هذه النفرة وضوحا فى المعنى فيقول (كل من هو مولود من الله لا يفعل خطيئة لأن زرعه يثبت فيه ولا يستطيع أن يخطىء لأنه مولود من الله ، بهذا أولاد الله ظاهرون وأولاد إبليس ...(٣)) .

---

(١) رومية ٨ : ١٤ ، ١٥ (٢) يوحنا ٨ : ٤١ - ٤٤

(٣) يوحنا ٣ : ٩ ، ١٠

وفى نفس الرسالة أيضا (وكل من يحب فقد ولد من الله ...(١)) .

وعلى هذا فإن الذين يحبون الله ويعملون بوصاياه ويحققون كل خير هم أبناء الله ، والذين لا يفعلون الخير ولا يقومون بعمل البر ويستبدلونه بفعل الشر فهم أبناء إبليس وهم مولودون منه . والتوراة من قبل يولس تدعو الأبرار الصالحين أبناء الله وبناته . ففي سفر التكوين جاء (وحدث لما ابتدأ الناس يكونون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله - أى الأبرار لما رأوا بنات الله - أى البارات - أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا وبعد ذلك نوه بأضداد هؤلاء من الأشرار فقال : وبعد ذلك أيضا إذ دخل بنو الله على بنات الناس - أى الأشرار - وولد لهم أولادا هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم ...(٢)) .

وجاء فى سفر التثنية (فرأى الرب ورذل من الغيظ بنيه وبناته ..(٣)).

وفى الوسع أن تقول بعد كل ذلك إن هذه البنوة للخيرين والأشرار على كلا معنييها إنما هى بنوة مجازية الأولون لله أبناء والآخرون للشيطان فصح أن كل بنوة تكون كذلك ، بل لقد توسع فى ذلك المعنى فكان الله فكان كل من أحب الله مولود من الله كما جاء (كل من يحب فهو من الله(٤)) وجاء أيضا قول يوحنا (كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد ولد من الله وكل من يحب الوالد يحب المولود منه أيضا. بهذا نعرف أننا نحب أولاد لله إذا أحببنا الله وحفظنا وصاياه فإن هذه هى محبة الله أن نحفظ وصاياه ووصاياه ليست ثقيلة(٥)) ثم إنه جاء فى الإنجيل أيضا (طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون(٦)) .

---

(١) يوحنا ٤ : ٧ (٢) تكوين ٦ : ١ - ٤
(٣) تثنية ٣٢ : ١٩ (٤) انظر الإصحاح من رسالة يوحنا الأولى
(٥) يوحنا الأولى ٥ : ١ - ٣ (٦) متى ٥ : ٩

فهذا وصف بالبنوة يعظم الذين يحبون السلام بين الخلائق ويحققون بينهم أسبابه وهو وصف تكريم وتشريف لهم. وهذا بولس يقول :

(لأننا جميعاً ذريته (١))

كما يقول بولس أيضا لأهل فيلبى (إفعلوا كل شىء بلا دمدمة ولا مجادلة لكى تكونوا بلا لوم وبسطاء أولاد الله بلا عيب(٢)) .

ويقول كذلك فى رسالته إلى غلاطية (أنتم جميعاً أبناء الله)(٣) .

« تحقيق المراد من البنوة فى المصادر الإسلامية »

ونحن إذا كنا نصحح المراد من معنى البنوة الواردة فيما يسمى بالتوراة والإنجيل وحملها على المجاز إن كن لابد من الوصف بها فإنما نسير وراء ماقرره القرآن الكريم الذى يرد ادعاء النصارى بنوتهم لك على الحقيقة ومن قبل شاركهم اليهود فى ذلك الادعاء : والقرآن ينكر على الجميع ذلك الزعم فى جدل عقلى منطقى فيقول سبحانه :

(وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، ولله ملك السموات والأرض ومابينهما وإليه المصير)(٤) .

وقد جعل الله فى القرآن القول ببنوة المسيح ناشئا من قبس من عقائد السابقين كما سبقهم اليهود إلى ذلك القول فقال سبحانه :

(وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك

---

(١) (٢) فيلبى ٢ : ١٤ ، ١٥

(٣) غلاطية ٣ : ٢٦ (٤) المائدة : ١٨

قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون)(١) .

وبهذا صحح القرآن الفكرة على البنوة كما أشار السيد المسيح أيضا بالتصحيح بأنها بنوة تشعر بالكمال الروحى والبشرى . فقال لتلاميذه (كونوا كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل)(٢) .

هذا وكون النصوص السابقة تفيد أبوة الله للبشر وبنوتهم لله على سبيل المجاز بأدنى تأمل وبقدر يسير من إمعان النظر .

ولابد من المصير إلى التأويل حتى لا يتعارض ذلك بالبراهين العقلية ، وحتى لا يلزم المحال من حملها على ظاهرها ، فليس بينه تعالى وبين الناس نسب ، فهو سبحانه (بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير)(٣) .

(وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً)(٤)

بل إن من يجعل لله ولداً يكون قد أتى أمراً يبلغ فى جريرته وشناعته درجة عظمى ، فإن السموات تكاد تتفطرن منه وتنشق الأرض وتصير الجبال منه هباء منثوراً . وقد توعد الله من يقول بذلك أو يعتقده بالويل والثبور فقال سبحانه :

(وقالوا اتخذ الله ولداً . لقد جئتم شيئاً إداً . تكاد السموات يتفطرن

---

(١) التوبة الآية ٣٠ (٢) متى ٥ : ٤٨

(٣) الأنعام ١٠١ : ١٠٢ (٤) الإسراء ١١١

منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ، أن دعوا للرحمن ولداً . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً . إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً)(١)

فالقرآن الكريم ينفى تماما أن يكون لله ابن على الحقيقة بل إن من يعتقد هذا فقد أشرك بالله الشرك البواح (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم)(٢)

أما إذا حملت البنوة الواردة فى الكتابين التوراة والإنجيل على المجاز فإن الله يكون أبا للجميع باعتبار الصلاح والإيمان ولا شىء فى ذلك ، ويكون ربا للجميع ومحبا للجميع من أنبياء بما فيهم المسيح ومن بشر ومنهم المسيح ، كما يكون الله إلهاً للجميع بما فيهم المسيح ، وأن الجميع أنبياء وملائكة ومؤمنين أبناء الله يشملهم بعطفه ومحبته وحنانه ، والمسيح والأنبياء منهم فى ذلك سواء .

وفى الوسع أن نزيد فى تصحيح هذا المفهوم من مصدر الإسلام الأول وصـــوه القرآن الكريم ، فهو يشير إلى معنى أبوته لطائعين من عباده والذاكرين الله كثيراً ، ولو أن تلك الإشارة من بعيد أو هى من طرف خفى .

إذ يدعو الله الناس أن يذكروه ذكراً كله شكر كأنه أبوهم أو هو أكثر من أبيهم ، أو المعنى كما يذكر المرء أباه أو أكثر منه ذكراً ، لأنه إذا كان الأب سبباً مباشراً لوجود الابن فالله هو الخالق البارىء المصور، وهو الذى خلق الإنسان من سلالة من طين ثم جعله فى قرار مكين، وتعهده وربّاه فى مختلف مراحله وأطواره .

---

(١) مريم ٧٨ — ٩٣ (٢) المائدة ٧١

يقول الله داعياً الإنسان إلى شكره بذكره (فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً)(١) .

وتكون النتيجة لذلك والجزاء عليه هو أن الله يذكرهم أكثر مما يذكرونه ويقبل عليهم أسرع مما يقبلون ، يقول عز وجل (فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولاتكفرون)(٢)

وفى الحديث القدسى : (إذا تقرب إلى العبد شبراً تقربت إليه ذراعا ، وإذا تقرب إلى ذراعا تقربت منه باعاً ، وإذا أتى إلى مشياً أتيته هرولة)(٣)

وإذا كان الفقراء من عباد الله يعولهم على وجه أخص برزقه ولطفه ورحمته فهم منه بمنزلة الأبناء كالذين يرعاهم أبوهم من البشر ويعولهم ، فجاء فى الحديث القدسى قوله تعالى :

(... الفقراء عيالى ...) وعلى هذا المعنى كان الله أبا اليتامى فى مناجاة داود — عليه السلام — وكافلهم(٤)

كذلك كان كافلا نبيه محمداً ﷺ — فى يتمه فقال تعالى (ألم يجدك يتيما فآوى)(٥) .

فالحديث القدسى يقرر أن الفقراء من البشر كأنبياء الله يعولهم ، كما يعول الآباء أبناءهم ، ولا يخفى أن الآية السابقة على الحديث المذكور تبين أن الله أكثر من أب للناس .

---

(١) البقرة ٢٠٠ (٢) البقرة ١٥٢

(٣) رواه البخارى عن أنس وأبى هريرة وأبى عوانه ، والطبرى عن سلمان

(٤) مزمور ٦٨ : ٥

(٥) الضحى ٦

وإذا كان الله أباً للبشر وكان البشر كذلك أبناء الله - وكل ذلك طبعاً على سبيل المجاز لا الحقيقة - فقد ربط القرآن الكريم بين البشر الأبناء لله برباط الأخوة لما بين الجميع من ربط وإحكام بالروح الإيمانية التى وصلت بين الله والمؤمنين فيقول الله تعالى عن هذه الإخوة العظيمة (إنما المؤمنون إخوة)(١)

هذه الأخوة الإيمانية صنعت مجتمعاً متوحد الإحساس متشابك العواطف طاهر القلب صافى النفس ، جمعت بينهم بنوتهم لله على المحبة كأنهم أبناء الأسرة المتوحدة ، وقد باعدت الجفاء فيما بينها . يقول الله عز وجل فى شأن كل ذلك فى الكتاب العزيز (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً)(٢)

وفى إطار هذه الأبوة من الله للمؤمنين الذين هم أبناء الله والذين هم بفضل ذلك إخوة فيما بينهم قد أوضحها نبى الإسلام - ﷺ - بل وحققها عملياً فى أول مجتمع المدينة حتى آخى بين المهاجرين والأنصار ، إذ جعل لكل أنصارى أخ روحى من المهاجرين إخوة تزيد فى الحقوق على إخوة النسب .

وإذا تقرر كل ذلك ، يصح أن أقول : إن أبوة الله للجميع الصالحين أبوة عامة لايختص بها إنسان دون آخر ، فهو سبحانه أب لجميع الأبناء ومنهم عيسى ومحمد وإبراهيم ويعقوب وموسى وهارون وداود وغيرهم وهم أبناء وهو أب لجميع المؤمنين ، بما حباهم به من نعمة سابغة وعطف غامر ورحمة شاملة . والمؤمنون جميعاً أبناؤه بما تحتوى قلوبهم من محبة لله وطاعة له وقيام بالتقرب إليه وهو سبحانه إله الجميع وهو ربهم لا فرق فى ذلك بين جنس وجنس ولا بين شعب وشعب ولا يختص بذلك عيسى أو محمد

---

(١) الحجرات ١٠

(٢) آل عمران ١٠٣

لأن الجميع محبوه وعباده المخلصون ، فيما يتمسكون به من مثل نصوص تفيد أبوة أو بنوة لاينبغى أن تصرف على معنى الأبوة الحقيقية أو البنوة الحقيقية ، ومن فهم ذلك أو اعتقده فقد هبط إلى فهم سقيم وصادر العقل وأحبط الدين وباء بإثم عظيم لأنه حمل الألفاظ معان فوق طاقتها خاصة إذا كانت معارضة بأضدادها .

وإذا كان ادعاء بنوة عيسى على الحقيقة لأنه ولد من غير أب فليس ذلك بأعجب من ولادة آدم أبو البشر حيث لاأب ولاأم له ، ولا بأعجب من الملائكة الذين لاأب لهم ولاأم وأتوا بعجائب تفوق قدرة البشر وتصورهم وهم بذلك أولى ، بل يلزم أن يكونوا آلهة . ولعل القرآن الكريم أشار فى قوله (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً)(١) إلى طغيان من عبد المسيح ومن عبد الملائكة من معاصريهم أو سبق عصورهم فهم قد سبقوا بمثل ذلك وقد توعد الله فى قرآنه من عبد غير الله بأنهم سوف يكونون مع معبوديهم حطبا لنار جهنم جزاء غلوهم وقولهم فى الله غير الحق فقال سبحانه مخاطبا ومتوعداً (إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون . لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها وكل فيها خالدون)(٢)

وهو فى هذا يستنطقهم الحق بمنطق عقولهم بأن معبوديهم من الهياكل والأوثان على مختلف أصنافها لوكانوا آلهة ماوردوا النار ولادخلوها لأن الآلهة لاتعذب ولاتدخل النار .

---

(١) النساء ١٧١

(٢) الأنبياء ٩٨ ، ٩٩

ولهذا لما سمعوا بهذه الآية الكريمة لما رأو فرحاً وظنوا أنهم أخذوا على محمد مأخذاً. فقالوا : إنه بالبناء على معنى هذه الآية الكريمة ، فإن المسيح من المعبودين . وهناك من الملائكة من عبد من البشر ، وإذن فالمسيح وبعض الملائكة سيكونون حطبا لجهنم ، وعليه فكيف يعذب الله نبيه وملائكته بالنار ؟

فأنزل الله تعقيبا على ذلك يبرىء الملائكة ومن اصطفاهم الله من عباده من النار ومن العذاب فقال سبحانه مصححاً أخطاء فهمهم وقصور عقولهم :

(إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون . لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون)(١)

وجرياً وراء سيرا أغوار الحقيقة نقول فى نهاية البحث :

إن مولد عيسى من غير أب ليس بأعجب من ملكى صادق ملك ساليم ـ السلام ـ الذى كان معاصراً لإبراهيم كما ورد فى كتبهم فقد كان (بلا أب بلا أم بلا نسب لا بداءة أيام له ولا نهاية حياة)(٢) بل هو دخل فى الألوهية من عيسى فهل يصح أن تدعى ألوهيته ؟

وهكذا نجد فى هذا المضمار كثيراً وكثيراً وليس المسيح فيه بأكثر منهم .

---

(١) الأنبياء ١٠١ — ١٠٣

(٢) الرسالة إلى العبرانية ٧ : ٣

الفصل الرابع

موقف بولس من التوراة

إذا قرأنا الأناجيل الأربعة لانجد المسيح إلا معظماً للتوراة جاعلا تشريعها منهج شريعته من غير أن ينقص أو ينقض منها شيئا إن لم يكن منه المزيد على تعاليمها وهذا منطق إنجيل متى يسجل للمسيح قوله : (لاتظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ماجئت لأنقض بل لأكمل)(١)

وكان المسيح يستنطق التوراة فى كل إرشاداته ، ولننظر إلى إجابته لأحد الكتبة عن الوصية التى ينبغى أن تحتل المكان الأول فى الدين والعقيدة يقول مرقس (إن أول كل الوصايا هى إسمع يا إسرائيل ، الرب إلهنا رب واحد وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل عقيدتك ، هذه هى الوصية الأولى)(٢)

فهذه الوصية الأولى من وصايا المسيح — عليه السلام — قد اقتبسها من التوراة(٣)

ولما كانت قولة المسيح هذه مصدقة لما أتى به موسى فى التوراة قال السائل وهو عالم التوراة المتابع إذ هو من طائفة الكتبة (جيداً يامعلم بالحق قلت لأنه الله واحد وليس آخر سواه ومحبته من كل القلب ومن كل الفهم ومن كل النفس ومن كل القدرة)(٤)

---

(١) متى ٥ : ١٧ (٢) مرقس ١٢ : ٢٩ ، ٣٠

(٣) انظر سفر التثنية ٦ : ٤ — ٩ (٤) مرقس ١٢ : ٣٢ ، ٣٣

وهى وصية تدعو فى صراحة مطلقة إلى وحدانية الله وحدانية خالصة من شائبة التعدد .

وهكذا لم يتجاوز المسيح ولم يكن له أن يتجاوز ماتقرره التوراة . وعلى هذا الدرب كانت وجهة المسيح فى رسالته إلا ما كان من بعض الإضافات بمثل تصحيح الأخطاء الواقعة فى العقائد والتقاليد أو حل بعض ما كان محرما على بنى إسرائيل جزاء عصيانهم أو ترقيق غلظتهم .

ولكننا حين نتصفح — رسائل (بولس) المسجلة ضمن أسفار العهد الجديد نجدها تسير بالناس فى طريق آخر يباعد بينهم وبين دعوة المسيح الحقيقية ، ومن ذلك أنه يشد بيدين من حديد على شريعة موسى — عليه السلام — ويضرب بها عرض الحائط فى غير هيبة ولامبالاة فنراه يأمر بنبذ التوراة وتعاليمها ثم يعيبها ويصفها بالضعف وعدم الفائدة ، بل يذهب إلى أكثر من هذا إذ يجعل من يعمل بالناموس كأنما يصطدم بحجر عثرة ربما يكون هلاكه فى عثرته . يقول فى رسالته إلى رومية (ولكن إسرائيل وهو يسعى فى أثر ناموس البر لم يدرك ناموس البر ، لماذا ؟ لأنه فعل ذلك ليس بالإيمان بل كأنه بأعمال الناموس فإنهم اصطدموا بحجر الصدمة . . كما هو مكتوب هاأنا أضع فى صهيون حجر صدمة وصخرة عثرة وكل من يؤمن به لايخزى)(١)

ويقول أيضا (لأن الكتاب يقول كل من يؤمن به لايخزى)(٢)

ولكننا لاندرى هل مايقوله بولس هنا هو الحق أو الحق ماثبت فى سفر التثنية حين تقول التوراة (ملعون من لايقيم كلمات هذا الناموس

---

(١) رومية ٩ : ٣١ — ٣٣

(٢) رومية ١٠ : ١١

ليعمل بها ويقول جميع الشعب آمين)(١) ثم ما أكده الإنجيل بقوله (فإنى الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل - ثم يتوعد من ينقض إحدى وصاياه بالذلة والصغار فيقول - فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى أصغر فى ملكوت السموات وأما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيما فى ملكوت السموات)(٢) .

فهذا معنى يؤكد محافظة المسيح وأحباؤه لتعاليم التوراة ثم يخلد القرآن الكريم هذا المعنى بعد ذلك إذ يأمر اتباع الموسوى والإنجيل العيسوى بقوله (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون)(٣) .

وطبعا إنما يأمرنا القرآن بأتباع الصحيح من التوراة والإنجيل لا المحرف منهما ولهذا يعقب بعد الآية الأولى بقوله (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق)(٤) .

أى إن الإيمان بما فى التوراة والأنجيل مشروط بمطابقته لما جاء فى القرآن الكريم ولا فلا إيمان ولا نجاه كما هو التعقيب على الآية الثانية بقوله (ومن يبتغ غير الإسـلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين(٥) .

---

(١) تثنية ٢٧ : ٢٦ ،

(٢) متى ٥ : ١٨ ، ١٩ .

(٣) سورة البقرة آية ١٣٦ .

(٤) سورة البقرة آية ١٣٧ .

(٥) سورة آل عمران آية ٨٥ ،

وذلك لأن القرآن مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل .

ولكن القديس بولس يجد فى السير على دربه فيذهب إلى أكثر مما ذهب فيحرم العمل بالناموس ويجعل العمل به غير مجد ولا مفيد ويحكم بنزع التوراة : ووضع الإنجيل مكانها ، ثم يصرح علانية بأنها ليست من عند الله بل هى عبارة عن مجموعة خرافات يهودية وتعاليم إناس مرتدين عن الحق (ويحثهم بصراحة لكى يكونوا أصحاء فى الإيمان لا يصغون إلى خرافات يهودية ووصايا أناس مرتدين عن الحق)(١) .

ويجعل الذين يتكلمون بما فى التوراة إنما يتكلمون بالباطل ومتمردون خداعون مضلون (فإنه يوجد كثيرون متمردون يتكلمون بالباطل ويخدعون العقول ولاسيما الذين من الختان الذين يجب سد أفواههم ... معلمين مالا يجب) (٢) وأنه لا معنى لبقاء الأنبياء السابقين على شريعة موسى وتمسكهم بأحكام التوراة كما لا يصح التمسك بما فيها بعد المسيح حيث أن العهد الجديد قد نسخ العهد القديم وثبت مكانه (أن الناموس الذى صار بعد أربعمائة وثلاثين سنة لا ينسخ عهداً قد سبق متمكن من الله نحو المسيح حتى يبطل الموعد لأنه إن كانت الوراثة من الناموس فلم تكن أيضاً عن موعد ، ولكن الله وهبها لإبراهيم بموعد ، فلماذا الناموس)(٣) .

والمعنى أن النجاة عند الله إنما هى بالإيمان ببنوة المسيح لله وأنه الفادى لخطايا البشر وليس بالعمل بتعاليم الناموس حيث أن الله وعد بالنجاة على

---

(١) تيطس : ١ : ١٣ ، ١٤ .

(٢) تيطس ١ : ١٠ ، ١١ .

(٣) غلا ٣ : ١٧ - ١٩ :

لسان إبراهيم لمن آمن بالمسيح ولم يكن هناك موعد بالنجاة بالأعمال كما أن الموعد سابق على التعاليم (والكتاب إذ سبق فرأى أن الله بالإيمان يبرر الأمم سبق فبشر إبراهيم أن فيك تتبارك جميع الأمم ، إذن الذين هم من الإيمان يتباركون مع إبراهيم المؤمن)(١) .

(فإنه ليس بالناموس كان الوعد لإبراهيم أو لنسله أن يكون وارثاً للعالم بل ببر الإيمان ، لأنه إن كان الذين من الناموس هم ورثة فقد تعطل الإيمان وبطل الموعد)(٢) .

وفى هذا احتقار لما فى التوراة ونبذ صريح لتعاليمها ، يقول فى رسالته إلى رومية (وأما الآن فقد ظهر بر الله بدون الناموس مشهوداً له من الناموس والأنبياء ... فأين الافتخار ؟ قد انتفى بأى ناموس ؟ أبناموس الأعمال؟ كلا، بل بناموس الإيمان ، إذن يجب أن الإنسان يتبرر بالإيمان بدون أعمال الناموس) (٣) .

وهكذا نرى لولس يهاجم الشريعة اليهودية بنفس الأساليب التى استخدمها من قبل فى الدفاع عنها (٤) .

وهذا يناقض ماجاء فى متى السابق من الوعيد بالذلة والصغار للذين ينقضون ولو وصية واحدة من وصايا الناموس ويعلمونهم خلاف ماصح منه ، كما يتنافى أيضاً مع ماجاء فى نص التثنيه من الوعيد باللعنة لكل من لا يقيم كلمات الناموس بل . نجد القديس بولس يسجل فى إحدى رسائله

---

(١) غلا ٣ . ٨، ٤ .

(٢) رومية ٥ : ١٣ ، ١٤

(٣) رومية ٣ :٢١، ٢٧ ، ٢٨ .

(٤) المسيحية نشأتها وتطورها ص ٨٣ .

ضد سفر التثنية دون خجل ولا مبالاة فيقول (لأن جميع الذين هم من أعمال الناموس هم تحت لعنة لأنه مكتوب ملعون كل من لا يثبت فى جميع ما هو مكتوب فى كتاب الناموس ليعمل به ولكن أن ليس أحد يتبرر بالناموس عند الله فظاهر لأن البارز بالإيمان يحيا ولكن الناموس ليس من الإيمان)(١)

فياويل من يعمل بمقتضى تعاليم الناموس ممن ينتمى إلى دين بولس ، ويا فلاح وسعادة من يلق به وراء ظهره مكتفيا بالاعتقاد بأن المسيح هو ابن الله المتجسد الذى فدى البشر من خطيئة آدم بموته مصلوبا على خشبة نعم كانو خاضعين لتعاليم الشريعة قبل المسيح الفادى وكانوا تحت وصاية الناموس ومستعبدين له فلما جاء المسيح بن الله المفدى لهم من الهلاك الابدى صار ذلك عتقا لهم من ربقة الناموس وتحررا لهم من الاستعباد لتعاليمه الموسوية .

(ولكن قبلما جاء الإيمان كنا محروسين تحت الناموس مغلقا علينا ... إذن كان الناموس مؤدبا ... ولكن بعد ما جاء الإيمان لسنا بعد تحت مؤدب)(٢) .

ونظريته التى يقرر عليها هذا المبدأ ويؤسسه عليها هى أن الإنسان إذا قيد نفسه بنهج العمل بالشريعة الموسوية فإنه يكون قد وضع نفسه لوضع اللوم أمام كل مخالفة لأى من تعاليم هذه الشريعة ، أما إذا رفضها فإنه لا لوم عليه لأنه قد تحلل من ربقة الالتزام بقوانينها فليس الله بعد ذلك ولا أحد يحاسبه على مخالفة (لأن الناموس عضبا إذ حيث لا ناموس ليس أيضا تعد)(٣) .

---

(١) غلاطية ٣ : ١٠ - ١٢ .

(٢) غلاطية ٣:٢٣ -٢٥ .

(٣) رمية ٤ : ١٥

ومن حجته أيضاً على ذلك قوله: إن إبراهيم - عليه السلام - كان مؤمنا بدون الناموس وقبل أن يختتن وعليه فلا يتوقف الخلاص فى نظره على الإيمان. يقول فى رسالته إلى رومية (لأنه إن كان إبراهيم قد تبرر بالأعمال فله فخر . ولكن ليس لدى الله (١) ، لأنه ماذا يقول الكتاب فآمن إبراهيم بالله فحسب له برآ ، أما الذى يعمل فلا تحسب له الأجرة على سبيل نعمة بل على سبيل(٢) دين. وأما الذى لا يعمل ولكن يؤمن... فبإيمانه يحسب له برا. وأخذ علامة الختان هنا لبر الإيمان الذى كان فى الغرلة)(٣) .

هذا هو المذهب البولسى وتلك وجهة نظره كما أثبت فى رسائله ولكن بولس قد نسى أو ربما غاب عنه أن إبراهيم - عليه السلام كان يعمل وفق كتاب أنزله الله عليه سماه القرآن الكريم بالصحف . يقول الله فى الذكر الحكيم مبيناً أن ما فى القرآن إنما هو تصديق لما تقدمه من الكتب (إن هذا لفى الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى) (٤) .

ثم إن إبراهيم - عليه السلام - كان يعمل وفق كتاب موحى به إليه من الله عز وجل كما يقول بولس نفسه، فقد ذكر أن الوعد بالمسيح دبر الإيمان إنما كان ذلك مكتوبا من قبل . قال بولس (كما هو مكتوب إنى قد جعلتك أباً لأمم كثيرة ...كما قيل هكذا يكون نسلك وإذ لم يكن ضعيفا فى الإيمان

---

(١) أى له فخر فى نفسه ولكن ليس له فخر عند الله لانه لم يحسب له عمله أما البر فبالإيمان فقط .

(٢) أى لما أخضع نفسه للناموس صار مدينا بالعمل به ،فعمله إذن أداء لما دين به لا لبر الله .

(٣) رومية ٤: ٢-١١ .

(٤) سورة الأعلى ١٨ ، ١٩

لم يعتبر جسده وهو قد صار مماتا إذ كان ابن نحو مائة سنة ولا مماتية مستودع سارة وتيقن أن ماوعد به هو قادر أن يفعلة أيضا . . . ولكن لم يكتب من أجلة وحدة ... بل من أجلنا نحن أيضاً (١)) أليس هذا الكلام صريح فى الإفاده بأن إبراهيم — عليه السلام — أنزل عليه كتاب وكان عملة مقيدا بما فية من نظم وقوانين وتوجيهات الهية ؟

وذلك الكتاب قد كتب بأقرار بولس ، هو مستقر فى علم الله بشأن تكثير وسيادة نسل إبراهيم وأن اتباع المسيح هم ورثة ذلك المكتوب وقد كتب ذلك من أجلهم أيضا .

(١) روميه ٤ : ١٧ — ٢٤

القديس يعقوب يرتضى دعوى بولس بإسقاط التكاليف والأعمال :

وفى الوسع هنا أن نحقق لقاء ومواجهة بين مذهب بولس ورفضه لشريعة التوراة العملية ومذهب القديس يعقوب أخى الرب الذى يدعو إلى ضرورة العمل مع الإيمان وتلازمهما تلازما لا يقبل الانفكاك فإن القديس يعقوب يحكم على من يدعو إلى نبذ الناموس والعمل به بالإثم العظيم والذنب الذى لا يغتفر على الإطلاق وهاك قوله :

(لأن من حفظ كل الناموس وإنما عثر واحدة فقد صار مجرما فى الكل، لأن الذى قال لا تزن قال أيضا لا تقتل ، فإن لم تزن ولكن قتلت فقد صرت متعدياً الناموس هكذا تكلموا وهكذا فعلوا كعبدين إن تحاكموا بناموس الحرية لأن الحكم هو بلا رحمة لمن لم يعمل رحمة . . . ما المنفعة يا إخوانى إن قال أحد إن له إيماناً ولكن ليس له أعمال هل يقدر الإيمان أن يخلصه ..

هكذا الإيمان أيضاً إن لم يكن له أعمال ميت فى ذاته ، لكن يقول قائل أنت لك إيمان وأنا لى أعمال أوفى إيمانك بدون أعمالك وأنا أريك بأعمالى إيمانى ، أنت تؤمن أن الله واحد ، حقاً تفعل والشياطين يؤمنون ويقشعرون .

ولكن هل تريد أن تعمل أيها الإنسان الباطل أن الإيمان بدون أعمال ميت ، ألم يتبرر إبراهيم أبونا بالأعمال إذ قدم إسحاق ابنه على المذبح فترى أن الإيمان عمل من أعماله وبالأعمال أكمل الإيمان وتم الكتاب القائل . فآمن إبراهيم بالله فحسب له برا ودعى خليل الله[1] ..)

---

(١) يعقوب ٢ : ١٠ — ٢٣

فما أجمل عبارته حين يقول إنى أستطيع أن أريك إيمانى من خلال أعمالى ولكنك لن تستطيع أن تريني إيمانك ما لم يكن لك أعمال ، لأن إيمانك ليس له ما يستعلن به للعيان كى تستدل على وجوده وحقاً إن الإيمان بدون أعمال ميت .

ولعل القديس يعقوب - وهو أخو المسيح - عليه السلام - كان يعلم الفرية المفتراة على شيخ الأنبياء إبراهيم - عليه السلام - التى تقول إن إبراهيم كان متبرراً بالإيمان من غير عمل بناموس فأدحض يعقوب هذه الفرية بقوله :

(إن أبانا إبراهيم قد تبرر بالأعمال فإن تقديم ابنه للذبح لهو كمال الإيمان وقمة الإيمان وإن الإيمان بدون أعمال يتساوى فيه الإنسان والشيطان . .) .

وكان تعقيب النص اليعقوبى صريحاً فى دحض الدعوى البوليسية إذ قال :

(ترون إذن أنه بالأعمال يتبرر الإنسان لا بالإيمان وحده ..)(١)

بل إن الفاجر المقيم زمناً على المعاصى قد يتبرر بعد تركه المعاصى بالأعمال الصالحة فيدخل حظيرة الإيمان والقبول ويحصل على رضا الرب وغفرانه إذا سلك إلى ربه طريق التوبة والإنابة بالعمل البار الخالص لله تعالى .

فهذه زانية يقص علينا يعقوب قصتها قد تبررت بالأعمال بعد العصيان يعقب بها على ما قرره بشأن تبرر إبراهيم بالأعمال مع الإيمان فيقول :

(كذلك أيضاً راحاب الزانية أما تبررت بالأعمال إذ قبلت الرجل

---

(١) يعقوب ٢ : ٤

وأخرجتهم من طريق آخر ، لأنه كما أن الجسد بدون روح ميت هكذا الإيمان أيضاً بدون أعمال ميت) .

وأما بعد هذه المواجهة للرسولين من خلال نصيبهما لعرضى مذهب كل منهما مع بيان وجهة نظره تترك بعد ذلك لفظه للقارىء للحكم على قضية إبطال العمل بالتوراة ورفض كل تعاليمها وادعاء أنها أتت بوجه حرفي هو الذى تمسك به اليهود ، وهو باطل ووجه روحى معنوى مبنى على الإيمان ببنوة المسيح وألوهيته وهو الوجه الصحيح فى مذهب بولس والذى جهلة اليهود فضلوا وضل أنبياؤهم واعمهم الطريق لأنهم لم يتوصلوا إلى معرفته والكشف عنه لعدم فهمهم لكتابهم التوراة أو ربط الإنجيل بالتوراة وضرورة العمل بتشريعها دون إنفكاك بين الايمان والعمل بالناموس ،

كما هو مذهب يعقوب، علما بأن يعقوب هو أخو المسيح لأمه فهو يعايشه فى تعاليمه ورسالته. أما بولس فلم يكن يعرف المسيح إلا عدواً لدوداً ويعقوب من المؤمنين الأوائل بالمسيح فى حياته وبعد رفعه أما بولس فلم يشرف بصحبة المسيح ولم يؤمن به فى حياته على الأرض لحظة واحدة على أن يعقوب لم يتعد بالدعوة بنى إسرائيل كما نص المسيح أما بولس فقد تعدى بالدعوة سائر الأمم .

تعقيب وتوضيح :

بعد الذى تقدم فى هذه القضية نستطيع التعقيب عليها بإظهار بعض المفاهيم من وجة نظرنا كما يلى :

أولا : لو كان الأمر الذى اكتشفه بولس صحيحا فلماذا غاب هذا الأمر عن المسيح وهو الجدير باكتشافه وتبليغه للناس لأنه هو الرسول الحق والنبي الصدق من قبل الله تعالى الذى نزل عليه الإنجيل وهو صاحب الدين الأصلى من قبل أن يعرف الناس بولس وقبل أن يسمعوا به ثم إننا نستميح الإخوة أتباع بولس أن نتساءل : من هو بولس هذا الذى أتى العالم بما لم تستطعه الأوائل ؟ ومن هو بولس هذا الذى فاق المسيح علما ومعرفة حتى اكتشف سراً مكنوناً كان محتجباً عن نظر المسيح والحواريين ، بل وعن أفظار من سبقهم من أنبياء بنى إسرائل ؟

إن من يتابع البحث عن تاريخ بولس ، ومكونات شخصيته ومبدئه ومصيره ومكانته من الوحى والرسالة لا يجد له عملا يتفوق به على المسيح ولا على الحواريين والتلاميذ كما لا يجد له من مقومات الشخصية والذكاء ما يكون به فوق فهم المسيح وذكائه . وإذا ترجح لدى الباحثين أن سفر [أعمال الرسل] المعزو نسبته إلى (لوقا) الذى كان تلميذا لبولس قد كتبه بأمر أستاذه بولس ومن إملائه فإن كلا منهما لم يجتمع بالمسيح — عليه السلام ولا رآه .

وحينئذ يمكن للمحققين أن يقدروا تلك الفلسفة التى أودعت هذا السفر حق قدرها ويدركوا مبلغ قيمتها فى نظر الفكر الحر غير المتعصب .

أما رسائله المسجلة فى العهد الجديد فهى وإن كانت تنطق بما كان عليه بولس من أدب يونانى رفيع وبقدرة فائقة فى تصوير ما يجيش بصدره من معان إلا أنها لم تصل إلى حد المعجزات التى كان المسيح يأتى بها للناس ، فلم يعط بولس من تفوق الفكر والإعجاز ما يتفوق به على المسيح حتى يكتشف فى التوراة أسرارا لم يكتشفها المسيح .

ثانيا : كان حقيق بأرباب الفكر الذين يؤمنون بالمسيح وإنجيله

ألا يتبعوا مذهبا مضادا لمذهبه الذى ينادى بأعلى الصوت بأنه لا يمكن أن يزول حرف واحد ولا نقطة واحدة من الناموس قبل أن تزول السموات والأرض ، فكيف بعد هذا يمكن التسليم لبولس بهدم صورة التوراة بأكلها بادعاء أن حرفيتها لا تجدى نفعا ؟

ثالثا : القول بأن التوراة قد بطل العمل بها ظنا من الداعين إلى هذه العقيدة بأن هذا الأمر قد اكتشف بعد رفع المسيح يستوجب الوقوع فى أخطاء لايمكن أن تغتفر أو يغفل أمرها. منها :

(ا) إتهام بنى إسرائيل كافة بأنهم كانوا من عهد موسى - عليه السلام - لى ظهور بولس — الرسول الأعظم فى المسيحية يتخبطون فى ظلمات العبادات الباطلة وهم لايشعرون . والحكم فى هذه متروك للقارىء اللبيب غير المتعصب .

(ب) الادعاء بأن الله تعالى أعطى قوم موسى كتابا ذا وجهين حق وباطل ، فأطلعهم على الباطل وأمرهم أن يدينوا له به ويعبدوه بحسبه ، وكتم عنهم الحق وتركهم فى ضلاله وغياهبه إلى انقضاء أكثر من ألفى سنة ، ثم أرسل إليهم المسيح — عليه السلام — فلم يطلعهم على الحق أيضا إما قصدا منه أو سهوا أو جهلا ، وأنه لو لم يجىء بولس ويكشف لهم هـــذا السر الخطير الذى كتمه الله عن مسيحه وعمن قبله من الأنبياء والمرسلين الذين منهم داود وسليمان وأشعياء وأرمياء ، وحزقيال وغيرهم اظل بيت يعقوب ضالين إلى يوم القيامة .

بل هذا ما أكده بولس وأعلن أنه لم يظهر الإله بل وأعطى عموم الدعوة لجميع الأمم بجميع النبوات بأمر ووحى الإله الأزلى الحكيم. وهذا ماسجله فى رسالته إلى رومية إذ يقول :

(وللقادر أن ثبتكم حسب إنجيلى ولكرازة يسوع المسيح حسب

إعلان السر الذى كان مكتوما فى الأزمنة الأزلية ، ولكن ظهر الآن وأعلم به جميع الأمم بالكتب النبوية حسب أمر الإله الأزلى لإطاعة الإيمان لله الحكيم وحده)(١) .

ولكن كل هذه الاحتمالات باطلة ، لأنه يصح حينئذ أن يقال : إن بولس أقدر من المسيح فى إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، إذ بهمته وثاقب بصيرته عرف المسيحيون انه يجب التعبد بالتوراة بحسب وجهها الإيمانى المسير بالرمز كما هو المدعى ـ إلى بنوة المسيح وألوهيته دون وجهها العملى فأصبحوا بهذا التعبد شعب الله الخاص أصحاب الفـداء والخلاص ، وعليه يمكن القول بأن الدنيا ومن فيها عليها العفاء منذ آدم إلى يوم فيه يبعثون .

(ج) اتهام رسول الله موسى — عليه السلام بأحد أمرين :

أولهما : أن يكون جاهلا وجه الحق فى التوراة فيصير المعنى أن الله غشه ـ ونستغفر الله من هذا ـ لأنه لم يطلعه عليه .

وثانيهما : أن يكون عارفاً به ولكنه كتمه عن قومه عمداً فيصير المعنى أن موسى غش قومه ـ والعياذ بالله ـ ويستحيل فى العقل أن يختار الله نبياً جاهلا أو يغش الله نبيه. كما يستحيل أن يكتم نبى ما أمره الله بتبليغه ليغش أمته ويضللهم. فهذه الأخطاء الثلاثة آثام ظالمة يؤاخذ الله عليها من يعتقد أن حقيقة أمر التوراة وتشريعها كان مجهولا إلى ما بعد المسيح .

رابعا : تردد الأناجيل الحالية أن المسيح — عليه السلام — كان يوبخ علماء اليهود على سوء أعمالهم التى كان أشدها خسرانا وفسادا تركهم أوامر التوراة وإهدار تعاليمها ، وبالطبع لأنها أوامر عملية كانوا يعرفونها

(١) رومية ١٦ : ٢٥ - ٢٧

لا باعتبار أنها أمور باطنية ولا علم لهم بها، لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ولا يخاطب الناس بما لا يفهمون، وإذا كان الأمر كذلك وكانوا لا يعرفون باطنها المجهول لهم، فإن المسيح كان مخطئا فى زجرهم لأنه لم يكن له الحق فى توبيخهم على ترك شىء لا يعرفونه. على أن المسيح نفسه كان يعلم تلك الأوامر العملية ويؤديها حسب نصوص التوراة الحرفية على أحسن وجه وأكمله والدليل على ذلك ما ثبت فى الأناجيل من أن أمه ذهبت به إلى الهيكل فى اليوم الثامن من ميلاده وقدمته للكهنة فأجروا له عملية الختان، ثم قدمت عنه قربانا حسب شريعة موسى - عليه السلام (١) .

ولما اكتملت رجولته كان يصلى ويصوم ويواظب على حضور الاحتفالات الدينية وإقامة الشعائر الموسوية كالأعياد والمواسم وغيرها من كل ما هو مفروض ومقرر فى التوراة حرفيا (٢) ،

وأنه لم يعتبر شيئاً من ذلك إلى أن رفع إلى السماء وكل هذا وأكثر منه يتردد على ألسنة المسيحيين المؤتلين للإنجيل صباح مساء، وكان المسيح عليه السلام - إذا شفى مريضا بإذن الله أو أبرأ ذا عاهة يأمره بأن يذهب إلى المعبد ويقدم قرباناً عن نفسه تعبيراً عن شكره لله خالقه صاحب العافية والشفاء الحقيقى . فهل كانت أفعال المسيح هذه مطابقة لأوامر التوراة من ناحية الوجه الإيمانى حسب قواعد بولس ؟ .

حاشا له عن ذلك .

إذن لو جاء أحد من بعد الرسول العظيم والنبى الكريم عيسى بن مريم صاحب الإنجيل الحق المنزل من عند الله الحق وأمر بالتحول عن سنة المسيح

---

(١) لوقا ٢ : ٢١

(٢) لوقا ٢ : ٤١ - ٤٨ و٤ : ١٦، ١٧ .

المستقيمة وأفتى بهدم هذه الشريعة أو نبذ التوراة بادعاء بطلان التمسك بحرفيتها فلا يصح أن يطاع له أمر أو تصح منه فى ذلك فتوى لأن إطاعته معصية لكتاب الله وخروج على دين المسيح الصحيح ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق وفى هذه لو أتانا من يقول إننى أطعت الله بالإيمان بيسوع المسيح وتبرأت من أعمال الناموس والشريعة المادية الموسوية حسب رسم بولس ومذهب بولس نستطيع أن نقول له :

لقد خرجت على المسيح ابن مريم وعلى تعاليمه كما خرجت عن دينه واتهمت المسيح فى أعماله حسب الشريعة بالعشوائية والعبث وعدم فهمه لما كان يؤديه من أوامر حسب الشريعة ، وهذا باطل يؤدى بصاحبه إلى الهلاك الأبدى لأن الدين دين عيسى لا بولس والإنجيل أنزل على عيسى ولم ينزل على بولس ،

خامساً :

إننا نتمسك بقول يعقوب فى رسالته وسجلة فى الإصحاح الثانى من الآية العاشرة إلى نهاية الإصحاح وقد أتبعناه قبيل الحديث عن فقرة التعقيب هذه فليرجع إليه وهو كلام ضد المذهب البولسى فى صراحة وقوة وشجاعة وإقدام فإن فيه البرهان الشافى على وجوب العمل بشريعة التوراة التى لم ينكرها بولس ويشنع عليها ويمكن بل يجب اتباع ماهدى إليه يعقوب لأنه وافق سنة المسيح ولم يستمع إلى من يخالفه ويدعو ضده .

وهكذا قد تتابعت الشبهات من أتباع بولس لتأكيد عدم التمسك بأوامر التوراة وعدم فهم معناها الروحى .

فمن شبههم أيضا التى تعرضها للأمانة العلمية ثم نعرضها للتحليل والمناقشة شبهة قائلة :

إن السبب فى ضلال اليهود وعدم اتباعهم دين المسيح هو تمسكهم بحرفية التوراة من الوجهة العملية فقط بل ادى بهم هذا التمسك إلى عدم معرفتهم أنه هو المسيح المنتظر الذى كانوا ينتظرونه فإنهم كانوا يتوقعون أن يأتيهم المسيح ملكا جبارآ فاتحا ومحاربا ليحارب دولة الرومان التى كانت تستعبدهم ويرد لهم كرامتهم وسلطانهم كما يرد لهم ملكا أرضيا يحقق لهم به مملكة واسعة عالمية تحكم العالم كله ولم يفهم ذلك بنو إسرائيل لأنهم كانوا ومايزالون فى نظر بولس وأتباعه يفهمون بشارات الأنبياء بالمسيح فهما حرفيا لا روحيا ولا باطنيا وذلك بحسب ميولهم ورغباتهم الأرضية وظلوا على جهلهم لفهم توراة موسى على وجهها الحقيقى الذى نزلت من أجله إلى مابعد زمن المسيح ـ عليه السلام ـ حتى اكتشف القديس الأعظم بولس ذلك السر المكتوم .

ولو أردنا التعقيب على هذا الفهم العجيب لحق لنا أن نقول بأن مافهمه اليهود من نصوص التوراه ليس خطأ وليس فهما ظاهريا غاب عنهم فيه الفهم الباطنى الحقيقى بل إذن مافهموه من كتب الأنبياء وفى بشاراتهم بالمسيح المنتظر هو الصواب ولا يمكن أن يعرفوا المسيح إلا بالوصف الذى فهموه لأن هذا هو مانطقت به الكتب فإنهم كانوا فى حالة من الضيق الشديد من تسلط الرمان عليهم وكانوا ينتظرون أن يبعث الله فيهم المسيح الموعود ملكا ذا قوة وسلطان يقهر أعداءهم وينقذهم من ذل الاستعباد وهوان التبعية ويحقق لهم مملكة كالتى كانت لأسلافهم فى عصور الملوك الأولين . ولأن الذى يطالع نصوص التوراة وكتب الأنبياء التى يتمسك بها أتباع الأناجيل يجدها صريحة بأنه سيجىء المسيح ملكا قويا متسلطا ويجلس على كرسى أبيه داود ، ولأنه ليس فى النصوص .

إلا هذا المعنى الذى يمكن أن يفهم من النصوص فى العهد القديم ، نجد أن كتاب الأناجيل أنفسهم يذكرونه بهذا الوصف فى أناجيلهم . من ذلك

مماقاله متى (وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا لأن منك يخرج مدبر يرعى شعبي إسرائيل)(١)

وكلمة (المدبر) وكلمة (الراعى) لغتان لكلمة (ملك) فى الاصطلاح العربى .

وهذا النص مقتبس من سفر تنبيهم (ميخا) الذى بشر بأن المسيح يولد فى قرية بيت لحم اليهودية (٢) .

وقال متى أيضا حاكيا حال ومقال (المنجمين) اليهود الذين جاؤا من المشرق إلى أورشليم ليروا المسيح بأعينهم حين ولدته العذراء . وكانوا يسألون الناس عن موضع مولده قائلين (أين هو المولود ملك اليهود فإنا رأينا نجمه فى المشرق وأتينا لنسجد له) (٣) .

ولما رأوه قدموا له هدايا يرمز بعضها وهو الذهب إلى مستقبله كملك ...

وعلى هذا الفهم للمسيح كملك أيضا قال لوقا يحكى بشارة الملاك جبرائيل للعذراء مريم (وها أنت ستحبلين وتلدين ابناً تسمينه يسوع هذا يكون عظيما وابن العلى يدعى ويعطيه الرب الإله كرسى داود أبيه ويملك على بيت يعقوب)(٤) . وتنقل الأناجيل أيضاً بشارة النبى زكريا بالمسيح قائلة .. ابتهجى ياأورشليم هو ذا ملككك يأتى إليك راكبا الخ .

---

(١) متى ٢ : ٦ .
(٢) انظر ميخا ٥ : ٢ .
(٣) متى ٢ : ٢ .
(٤) لوقا ١ : ٣١ ـ ٣٢ .

فكل هذه الأخبار الإنجيلية شاهدة بأن اليهود كانوا ينتظرون مسيحا ملكا وأنهم فهموا التوراة كما فهمها المسيحيون من غير أن يغيب عنهم شيء من حقائقها التي يدعى أنها لم تكتشف إلا بفهم وإلهام القديس العظيم بولس بل إن من يمعن النظر فيما وقر فى قلوب الحواريين من إيمان سجلته الأناجيل ونطقت به يجد أنهم آمنوا بالمسيح على أعتقاد أنه سيصير ملكا على اليهود وسيتسلط على الرومان . وكانوا يتمنون أن يتم ذلك فى زمانهم ليصبحوا ذوى مناصب فى تلك المملكة المرجوة المنتظرة وظلوا على ذلك الاعتقاد وهذا الرجاء إلى نهاية عهدهم بالمسيح بل استمر ذلك مطلوبهم ورجاءهم إلى مابعد المسيح بأكثر من ألف عام ، يدل على ذلك أنهم سألوه قبل رفعة قائلين :

(هل فى هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل)(١) ؟

فتلك نصوص متضافرة على أن اليهود كانوا ينتظرون أن يأتيهم المسيح ملكا أرضيا فاتحا محاربا وغالبا ليرد إليهم الملك الأرض ، جاءت نصوص الأناجيل تؤكد أن الذين آمنوا به كانوا يفهمون هذا الفهم بعينه ، فلو كانوا مخطئين فى فهمهم لراجعهم المسيح من أول الأمر ونبههم على خطئهم ولم يتركهم فى آمالهم يتخبطون ويتحطمون .

وخلاصة مايقال فى ذلك أن اليهود لم يكونوا مخطئين فى تمسكهم بحرفية التوراة ولم يكن لها مفاهيم استقل بمعرفتها القديس بولس .

وعلى ذلك فإن الثابت فى التوراة والأنبياء والأناجيل وأخذ الحواريين بنصوص التوراة وبشارة الأنبياء يدل دلالة قاطعة على أنه ليس هناك إلا الفهم المتفق عليه بين اليهود والمسيحيين بالنسبة للصحيح منها .

---

(١) أعمال ١ : ٦ .

والقول بأن للتوراة معنى خاصا خفى على جميع بنى إسرائيل ولم يكتشفه إلا الرسول بولس ليس له نصيب من الصدق والصواب وأقل مايقال فى رده أنه كان الأولى بالتنبيه على المعنى الخفى السيد المسيح ـ عليه السلام .

وأن يفصح عنه ويفضى به إلى تلاميذه لأنهم أقرب إليه من غيرهم ثم يبينه للناس ولا يكتمه حتى لا يتركهم فى حيرة من أمرهم وحيرة من معرفة الحقيقة إلى أن يأتيهم رسولهم برلس. ولأن فى كتمان هذا الأمر خيانة يجب أن يتنزة عنها الرسول المسيح ابن الإله على زعمهم .

الفصل الخامس

إنجيله والرسائل وتعميم الدعوة

الإنجيل الذى زعم بولس أنه أرسل به :

١ ـ إذا كان بولس قد رفض التعاليم اليهودية المستمدة من التوراة والتى أوصى بالعمل بها المسيح عليه السلام ـ فلابد أن يعتاض عن ذلك بتعاليم أخرى تحل محلها ذات منهج يتضمن الخطوط الأساسية والفرعية لمذهبه ودعوته ، ولا بد أيضاً أن يضمن ذلك كتاب يدعو الناس إليه كشأن كل داعية أن يقدم كتابا يتضمن مبادئه. ذلك الكتاب قدمه بولس إلى الأتباع وأسماه إنجيلا ، (وكان بولس يعتقد أنه ملهم موحى إليه قادر على فعل المعجزات)(١)

٢ ـ ويقول صاحب نشأة المسيحية : (إن الأمر الذى يهمنا هنا هو ملاحظة أن بولس لم يتدرب على التبشير بالمسيحية فى القدس أو على أيدى الحواريين الإثنى عشر ، وأنه لم يعتبر نفسه تابعاً لهم ، لقد أيقن أن عيسى نفسه المسيح الممجد نصبه حواريا بإرادته الخاصة ، لذلك فهو يرفض أن يشكك أحد فى هذا التشريف ، كما يشعر بأنه فى غير حاجة إلى رشاد أو نصح من بشر أياً كان)(٢)

---

(١) قصة الحضارة حـ ٣ م ٣ ص ٢٥١

(٢) نشأة المسيحية ص ١٠١

وإن بولس يصرح بذلك فى رسالته إلى أهل غلاطية حيث يقول: (أفأستعطف الآن الناس أم الله ؟ أم أطلب أن أرضى الناس ، فلو كنت بعد أرضى الناس لم أكن عبداً للمسيح وأعرفكم أيها الإخوة الإنجيل الذى بشرت به أنه ليس بحسب إنسان ولا علمته بل بإعلان يسوع المسيح .. ولكن لما سر الله أفرزنى من بطن أمى ودعانى بنعمته أن يعلن أبنه فى لأبشر به بين الأمم للوقت لم أستشر لحما ودما - أى لم أشاور أى إنسان - ولا صعدت إلى أورشليم إلى الرسل الذين قبلى انطلقت إلى العربية ثم رجعت أيضا إلى دمشق ثم صعدت إلى أورشليم لأتعرف ببطرس)(١)

٣ — وعلى هذا فإن بولس يدعى أن له إنجيلا أنزله المسيح عليه وخصه به من دون الحواريين ، وجعله مخالفا لأناجيلهم ومخالفا لتبشيرهم وأمره أن يكرز به ضد تبشيرهم ويرى أنه المؤتمن على التبشير كما أمره الله بذلك فيقول :(وإنما أظهر كلمته فى أوقاتها الخاصة بالكرازة التى أؤتمنت عليها بحسب أمر مخلصنا الله فهو الكارز والواعظ بالإنجيل والرسول والمعلم لجميع الأمم)(٢) .

(ويتهم غيره بأنه يتخذ من التبشير بالإنجيل مهنة للاسترزاق)(٣).

أما هو فيقول عن نفسه (فويل لى إن كنت لا أبشر)(٤)

كما نراه يدعى أن هناك إنجيلين ، أحداهما إنجيل الغرلة وآخر هو إنجيل الختان .

---

(١) غلاطية ١ : ١٠ - ١٨

(٢) ٢ تيموثارس ١ : ١٠ ، ١١

(٣) انظر ١ كورانثوس ٩ : ١٤ ، ١٥

(٤) ١ كورنثوس ٩ : ١٦

فأما إنجيل الغرلة فاختص هو بالتبشير به للأمم الذين هم غير اليهود وقد أغناهم بذلك عن الختان ومن أعمال الناموس .

وقد جعل بولس يردد ذكر ذلك الإنجيل فى رسائله مرات ومرات ويسميه بأسماء متعددة قد تتناقض مع بعضها أحيانا ، فتارة يقول (إنجيلنا)(١) وأخرى يقول : (إنجيلى)(٢) ومرة يقول : (إنجيل المسيح)(٣) وأخرى يقول (إنجيل الله)(٤) وأحيانا يسميه (إنجيل الغرلة) إلى غير ذلك .

وزعم أن إنجيله هذا هو الكتاب الوحيد الذى سيبين الله به سرائر الناس يوم القيامة ، مع أن البشرية لم تشهد ذلك الإنجيل أو أن أحد يعلم أين هو ؟ وماصفته أو حجمه أو موضوعه ، كما لم نجد له ذكر فى الأناجيل الأربعة ولم تنوه بوجوده ، كما لا نجد فى كلام بولس إلا اسمه فإنجيل مثل هذا لم يزل فى عالم الغيب ، ولم يرد ذكره فى كلام المسيح ولا فى كلام الحواريين ثم يدعى وجوده والعمل به ودعوة الناس إليه وانتهاج منهجه .

وهذا كلام يعوزه الدليل اللهم إلا أن تكون رسائله الأربع عشرة المعزة إليه هى ذلك الإنجيل الذى يدعيه بولس وهنا يكون المجال فسيحا لكلام كثير وإنه لمن العجب حقا أن يؤمن قوم بكتاب لا وجود له وأنهم يصدقون دعوى مدعيه بمجرد كلامه عنه وكان الأجدر به وبهم أن يجدوا فى البحث للحصول على إنجيل المسيح الحقيقى الذى جاء به مصدقا لما بين يديه من التوراة حتى يعلموا أنه الحق من ربهم .

---

(١) ١ تسالونيكى ١ ، ٥ و ٢ تسالونيكى ٢ : ١٤

(٢) رومية ٢ ، ١٦ و ١٦ : ٢٥ - ٢٧

(٣) ٢ كورنثوس ٩ : ١٣ ورو ١٥ : ١٩

(٤) ٢ كورنثوس ١١ : ٧ ورومية ١٥ : ١٦

الرسائل :

والذي يبدو من خلال الوثائق التاريخية أن بولس كان يعاني من أزمات نفسيه وهو يشق الطريق إلى دعوته الجديدة خاصة مايشعر به من أنداده أهل الاختتان سواء كانوا من المهتدين أو غير المهتدين، وكان لايجد مايسرى به عن نفسه ويجلب لها الارتياح والهدوء سوى رسائله التي كان يبعث بها إلى أصدقائه أو من اهتدى على يده من أهل البلاد التي يبشر فيها بدعوته واعظا ومبشراً في ذهابه وإيابه .

ويذكر المحققون أنه كتب أكثر من عشر رسائل . . . استغرقت منه وقتاً بلغ عشراً من السنين تقريبا ، وكان يملي هذه الرسائل على آخر يكتبها له

كما يقرر هؤلاء المحققون أنه كان يعقب ويضيف إليها بعد كتابتها بخط يده دون أن يهذب مايضيف ، ولذلك نرى فيها كثيراً من الخطأ اللغوي وكثرة التكرار وشدة الغموض الذي يكتنفها .

ويذهب النقاد إلى أن الرسائل التي يمكن أن تنسب إليه هي رسالته إلى أهل غلاطية وإلى كرنثوس الأولى والثانية ، وإلى رومية .

أما رسائله إلى أهل تسالونيكي الأولى والثانية ، وفيليبي ، وكولوس ، وفليمون ، فمن المرجح نسبتها إليه مع نسبة الرسالة إلى أهل إفسس إليه في شيء من التردد .

مضامين الرسائل :

إن الدراسة الواعية لهذه الرسائل تؤكد أنها كانت تخدم بعنف وإتقان قضية بولس الكبرى التى نصب حياته من أجل نصرتها، وهى قضية أن المسيح ابن الله المنقذ الذى تجسد وصلب حاملا عن كاهل البشرية المزمنة ببنوته وفدائيته عبء خطيئة آدم مع الغاء الناموس ورفع التكاليف وجعل الخضوع للناموس لعنة ، ولذلك كان يعالجها فى قوة وغضب وإخلاص ، ولكن إخلاصه كان يتسم بالود والمحبة الرقيقة لأتباعه ومريديه، كما كان يتسم بالعنف والشدة للمناوئين والخارجين على مبدئه .

وكانت الرسالة الواحدة تتضمن الأسلوبين المعبرين عن هذين الاتجاهين والانفعالين معا

وكانت رسائل بولس على مايبدو تتلى على الناس جهارا حتى انتشر الكثير منها قبل نهاية القرن الأول ، فقد ورد ذكر كثير منها فى كتابات أدبائهم قبل القرن الأول . ثم دخلت أهدافها فى اللاهوت المسيحى وهو لاهوت يعبر غالبا عن آراء صوفية غامضة فيها أن المسيح (حكمة الله) . و (ابن الله) و (بكر كل الخليقة) فإنه فيه خلق الكل والكل به وله قد خلق الذى هو قبل كل شىء ، وفيه يقوم الكل ، ولكنه ليس هو المسيح المنتظر اليهودى الذى سينجى إسرائيل من الأسر ، بل هو الكلمة الذى سينجى الناس كلهم بموته .

وقد استطاع بولس بهذه التفسيرات أن يغض النظر عن يسوع الواقعة وعن أقواله التى لم يسمعها منه مباشرة ، كما استطاع بذلك أن يقف على قدم المساواة مع الرسل الأولين — حوارى المسيح — الذين لم يكونوا

يجارونه فى آرائه الميتافيزيقية (١) .

عناصر تكوينها :

وإن الدراسة المفصلة لرسائل بولس التى يجمع أكثر النقاد اليوم على صحة نسبتها إليه تكشف لنا الغطاء عن مزيج من الأفكار التى احتواها فكر بولس وأودعها رسائله هذه ، وهو يبدو للوهلة الأولى مزيجا غريباً وعجيبا، إذ هو مزيج مما كان يدعو إليه الإثنا عشر فى دعوتهم الأساسية ومزيج من الأفكار اليهودية التى بعضها يرجع إلى النصوص القديمة المقدسة ، بينما يرجع البعض الآخر منها إلى مقتبسات دينية استحدثت أخيرا ثم أودع فى هذا المزيج كثير من المفاهيم الذائعة فى الأوساط الوثنية اليونانية ومن الذكريات الإنجيلية والأساطير الدينية الشرقية .

وفى الحق ينبغى أن ندرس هذه الملامح بشىء من التفصيل إذ فى طياتها الأسس الأصيلة والمبادىء الأولى لأخطر جدال يثار حول تطور العقائد التى بثها عيسى - عليه السلام - إلى العقائد التى نسجها بولس لعقائده الجديدة التى تهدف إلى خلاص البشر أجمع .

ورسائل بولس تشهد من غير شك بأن صاحبها على معرفة وثيقة بالنصوص المقدسة كشأن أى يهودى آخر. وقد أشربت هذه الرسائل روح مؤلف أخذ الكثير من تعاليم القديسين وأثرت فى تكوينه الفكرى ، فهو يتعشق الجدل مع كونه نفاذ البصيرة دقيقها شديد الدهاء فى تقديم البراهين أو هدم براهين خصومه .

---

(١) قصة الحضارة حـ ٣ م ص ٢٦٣ و ٢٦٥ ول ديدرانت

وإن القارىء يلمح فى رسائله أنه كان لديه رصيد من المذاهب — حول طبيعة الانسان وفكرة الإثم والعلاقة بين الإثم والموت — وهذه طريقة لاتقل فى قيمتها فى منهج الجدل عن طريقة علماء اليهود(١) .

متى كتبت الرسائل ؟

إن التاريخ يثبت أن بولس قتل فى عهد (نيرون) ومعه بطرس ، وحكم نيرون كان فى سنة ٦٤ م . وإذا كان بولس قد مكث فى السجن سنين قبيل موته فإن معنى هذا أن رسائله قد كتبت قبل الأناجيل كلها ، لأن الأناجيل كتبت مابين عامى ٦٤ و ٧٠ م وإن كان كثير من المحققين يثبتون أن الإنجيل الرابع كتب قبيل نهاية القرن الأول .

هذا ويرجح الكاتبون أن بولس بدأ كتابة رسائله عام ٥٠ م أثناء تجواله فى رحلته التبشيرية الثانية .

(١) راجع شارل جينيبير ص ٨٣ المسيحية نشأتها وتطورها .

تعميم الدعوة لغير اليهود :

يخرج بولس بمسار جديد فى رسم مستقبل المسيحية ، فبدلا من أن تكون لبيت يعقوب فقط كما بين المسيح صراحة(١) يجعلها بولس عامة لكل البشر على اختلاف أممهم فيقول :

« أم الله لليهود فقط بل للأمم لأن الله واحد هو الذى سيبرر الختان بالإيمان والغرلة بالإيمان »(٢) .

وبذلك يكون بولس قد خرج برسالة المسيح عن أخص خصائصها وهى اختصاصها لبنى إسرائيل الذين يدينون بشريعة الختان يقول بولس [لأنه فى المسيح يسوع ليس الختان ينفع شيئا ولا الغرلة بالخليقة الجديدة(٣)) ويريد بالخليقة الجديدة أن المسيح وهو (السيد الإلهى) (ابن الله) تجسد وصلب فداء عن الخليقة وكفارة ، فمن يؤمن بهذه العقيدة فقد عوفى من العقاب وله النجاة فى ملكوت السيد المسيح ولو كان له من الخطايا مثل زبد البحر .

ولذلك كانت رحلاته فى الدعوة إلى آسيا وأوربا متجاوزاً بذلك حدود المواطن اليهودية ، كما هو مذكور فى فصل رحلاته التبشيرية فعممها فى جميع . يقول الآفاق بولس : « ليس يهودى ولا يونانى ، ليس عبد ولا حر ، ليس ذكر ولا أنثى لأنكم جميعاً فى المسيح(٤) يسوع » .

---

(١) متى ١٠ : ٦
(٢) رومية ٣ : ٢٩ ، ٣٠
(٣) غلاطية ٦ : ١٥
(٤) غلاطية ٣ : ٢٨

كما قد اختص نفسه بمعرفة السر المكنون والمكتوم عن سواه من كل الخليقة وهو الإيمان بيسوع المسيح ، كما احتكر كل النبوات بأمر ووحي من الله الأزلي ليكون رسولا لكل العالم بقوته وفائق قدرته (وللقادر أن يثبتكم حسب إنجيلي والكرازة بيسوع المسيح حسب إعلان السر الذي كان مكتوماً في الأزمنة الأزلية ، ولكن ظهر الآن وأعلم جميع الأمم بالكتب النبوية حسب أمر الإله الأزلي لاطاعة الإيمان لله الحكيم وحده(١)) .

وفى غفلة من الزمن يصبح بولس رسول الأمم وصاحب الدعوة العالمية (العالم لى وأنا للعالم)(٢) وطالما نادى وأذاع فى رسائله ورحلاته أنه رسول(٣) المسيح بعد ما سما بالمسيح إلى مرتبة الألوهية .

هذا هو مذهب بولس فى تعميم الدعوة وادعاء عالميتها ، مع أن الثابت أن المسيحيين الأوائل اقتصروا أول أمرهم كما اقتصر المسيح من قبل على دعوة اليهود وحدهم إلى دين المسيح(٤) ، وكثيراً ما كانوا يخطبون فى الهيكل لدعوة اليهود إلى الإيمان ، ولذلك كانوا يطيعون قوانين التغذية والحفلات حسب التقاليد اليهودية .

ويقول صاحب نشأة المسيحية : إن الدلائل تحملنا على الاعتقاد بأن أصحاب عيسى وأتباعه شديدى التعصب لبنى جلدتهم من اليهود — على الأقل فى بدء الدعوة — وفاقوا فى ذلك عيسى نفسه ، وكانت فكرة تبشير

---

(١) رومية ١٦ : ٢٥ - ٢٧

(٢) غلاطية ٦ : ١٤

(٣) رو ١ : ١ و١ كو ١ : ١ وغلا ١ : ١

(٤) أ ع ٢ : ١٤ ، ٢٢ وإصحاح ٣ كله

الوثنيين بعيدة كل البعد عن عقولهم ، بل الواقع أنه كان من ضروب المستحيل أن يتصوروا إمكان انتشار الإنجيل بين رجال لم يؤمنوا بالعقيدة اليهودية قبل ذلك(١) .

ولم تفترق المسيحية عن اليهودية إلا فى سنة ٦٦ م تقريبا بعد أن ثار اليهود على رومة ثم دمر الهيكل ، ووقف المسيحيون من قضايا اليهود سلبيين معتقدين بذلك أن الثورة وتدمير الهيكل على يد تيطس تحقيق لنبوءة المسيح بنهاية العالم .

« وظلت المجامع اليهودية أهم الأماكن التى تبث فيها الدعوة للمسيحية ، كما ظل اليهود أهم الجماعات لبث هذه الدعوة حتى عام ٧٠ م ، ولهذا انتقلت إلى الطقوس المسيحية أشكال العبادات العبرانية واحتفالاتها وملابسها . . وقبلت المسيحية فيها كثيراً من الأعياد اليهودية كعيد الفصح وعيد العنصرة وإن كانت قد غيرت أشكالها وتواريخها(٢) » .

ولقد كان هذا هو المسار الطبيعى للدعوة المسيحية فى عمل المسيح ورسالة المسيح ثم فى عمل وتبشير الحواريين والرسل الأولين ، فما بالها قد أخذت مساراً جديداً حسب رسم القديس بولس للدعوة الجديدة ؟

ولعل حصول بولس على صفة المواطن الرومانى جلب له نفعا كبيراً ، فمن ذلك أن هذه الصفة كانت حصناً له من أن يجعل تفكيره ضيق الأفق ذا تعصب طائفى مع كراهية للأجنبى كيهود فلسطين ، كما أفادته هذه الصفة فى أن جعل تفكيره يجتاز حدود طائفته ليصبح عالميا فى التفكير والعمل أيضا مما أعانه بعد ذلك على التحرك بدعوته خارج أسوار طائفته المحدودة من اليهود لتصبح دعوته وهو لا يكاد يشعر بذلك — دعوة عالمية(٣) .

---

(١) شارل جينيبير ص ٦٥ و ٥٦

(٢) راجع قصة الحضارة حـ ٣ م ٣ ص ٢٤٧

(٣) نشأة المسيحية ٨٤

الباب الثالث

الملكوت الذى بشرت به التوراة والأنبياء

ودعا إليه عيسى عليه السلام

وعلاقته بنهاية العالم

ويشتمل على الفصول التالية :

تمهيـــد :

لقد أعدت بشارات الأنبياء السابقين أذهان اليهود لاستقبال المسيح الذى يحقق لهم مملكة قوية السلطان تنقذهم من الاضطهاد الذى يعانونه فى ظل الحكم الرومانى ، وهى مملكة تبلغ فى قوتها مملكة داود وسليمان .

ولقد جاء المسيح حقا ونادى فى بنى إسرائيل بأنه أتى ليقيم مملكة قد حان أجلها ، فقال : « توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات[١] » .

ووعد بأن الله سيقضى بعد عودته - أى عودة المسيح - على عهد الشر والخبائث فى الأرض عما قريب . بل لقد أكد أنه سيحاسب بنفسه جميع البشر ، الأحياء منهم والأموات[٢] ، لأنه « ابن الإنسان الذى سيأتى لهذه المهمة على سحب السماء[٣] » وكانت فكرة قرب حلول مملكة الله الفكرة الأساسية فى دعوة عيسى عليه السلام وكانت هذه هى الأفكار السائدة والمألوفة لسامعيه ، ولكنه لم يحددها تحديداً واضحاً وبينا ، ولهذا كانت غامضة ومثيرة للأفكار فى تحديد معناها وتحـــديد زمانها ومكانها ، غاية ما هنا لك أنه كان يتحدث كثيراً عن حلول ملكوت السموات ، وان أتباعه من بنى إسرائيل هم ورثة هذا الملكوت .

---

(١) متى ٤ : ١٧ (٢) أعمال ١٠ : ٤٢ و ١ بطرس ٤ : ٥
(٣) أنظر متى ١٦ : ٢٧

الفصل الأول

معنى الملكوت فى الكتب السابقة

لقد ترددت الأفكار منذ زمن المسيح ومن بعده فى تحديد معنى هذا الملكوت ، فهل كان يعنى به ملكوتاً سماويا خارجا عن مألوف الطبيعة . ؟

أكبر الظن أنه لم يكن كذلك ، فإن الرسل والمسيحيين الأولين كانوا جميعاً وبدون استثناء ينتظرون بعد وقت ليس بالطويل أن تقام لهم مملكة أرضية ، وكانت هى الفكرة السائدة لدى اليهود والتى اعتقدوها فى بشارات الأنبياء ، ولعل المسيح — عليه السلام — قد ورثها عنهم ، فكان يعلم أتباعه أن يصلوا إلى الآب قائلين : « ليأت ملكوتك لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض »(١) .

ولما خبا هذا الأمل ولم تتحقق المملكة المادية فى حياة المسيح الأرضية استنطق إنجيل يوحنا المسيح بقوله إن « مملكتى ليست من هذا العالم »(٢) .

وإنجيل يوحنا ألف بعد نهاية المسيح على الأرض .

أم كان يعنى بهذا الملكوت حالة روحية لمجتمع خال من الشرور والخبائث والآثام . . ؟ أو أنها وجود مادي واقعى لمملكة يجتمع فى مجتمعها طهارة الروح وطهارة الحكم وسعادة الدنيا والآخرة . . ؟

إن المسيح كان يتحدث فى بعض الأحيان عن ملكوت الله باعتباره

---

(١) متى ٦ : ١٠ (٢) يوحنا ١٨ : ٣٦

حالة من حالات الروح يصل إليها الأطهار المبرؤن من الذنوب : « ملكوت الله العظيم »(١) .

ومن المعانى التى ألقاها : إن الوقت الذى يتوب فيه الإنسان من ذنوبه يمر مسرعا ، فأما من تاب وأناب وسلك سبيل العدالة وأحب الله وآمن برسوله فإنه يرث ملكوت السموات ويسمو إلى القوة والمجد فى عالم قد تحرر من جميع الشرور والآثام والموت ، كما كان يتحدث فى أحيان أخرى فيصور هذه المملكة : بأنها مجتمع سعيد يتحقق فى مستقبل الأيام حكامه هم الرسل ، وأن من أعطى أو أوذى فى سبيل المسيح يأخذ مائة ضعف(٢) » .

ويبدو أن هذا التصور الأخير لهذه المملكة قد دفع للكثيرين أن يفهموا أن ملكوت الله عبارة عن تكوين مجتمع يبلغ فيه الايثار إلى حد أن يتخلى المرء عن كل ماله وجميع اختصاصاته وكأنه يشبه مجتمعا اشتراكياً .

وهذا كاتب سفر الأعمال يصور لنا ما كان سائدا بين المسيح وبين الرسل وتلاميذه الأولين من إيثار متبادل بينهم اتخذوه سلوكا عملياً وحياة مثالية فقال :

« وكان جمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة ولم يكن أحد يقول إن شيئاً من أمواله له بل كان عندهم كل شىء مشتركا ... إذ لم يكن فيهم أحد محتاجا لأن كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ويضعونها عند أرجل الرسل فكان يوزع على كل أحد كما يكون له احتياج ، ويوسف الذى دعى بين الرسل برنابا . . .

---

(١)

(٢) متى ١٩ : ٢٨ ، ٢٩

إذا كان له حقل باعه وأتى بالدراهم ووضعها عند أرجل الرسل[١] » .

واستمروا على ذلك حتى كثر المال تحت أيدى الرسل والتلاميذ مما يتبرع به المعتقدون دين المسيح ، وأمام كثرة المال اضطر الرسل إلى تعيين جماعة منهم قدر عددهم بسبعة من شمامسة الكنيسة للإشراف على تنظيم هذا المال وتوجيهه وتوزيعه حتى لا تحرم منه الأرامل وغيرهن[٢] .

ولكن من المرجح أن هذا المال قد قل مورده لقلة أتباع المسيحية وضعف قوتها بعد قتل « إستفانوس » .

ولعل أصحاب هذا الفهم قد حسبوا المسيح ثائراً اجتماعياً ، واستندوا فى ذلك على ماجاء فى الأناجيل من شواهد تؤيد هذه النظرة منها « أن المسيح لايخفى احتقاره الرجل الذى يجعل جل همه فى الحياة جمع المال والانغماس فى الترف والنعيم[٣] ، فهو يتوعد الغنى البطن بالجوع والشقاء .

ولما سأله شاب غنى عما يجب أن يفعله بعد أن حفظ الوصايا قال له « بع أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى »[٤] .

ويبدو أن الرسل أنفسهم كانوا يفسرون الملكوت أحياناً بأنه ثورة تغيير للعلاقات القائمة بين الأغنياء والفقراء ، فكانوا هم والمسيحيون الأولون يؤلفون جماعة اشتراكية « وجميع الذين آمنوا كانوا معاً وكان عندهم كل شىء مشتركا ، والأملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع كما يكون لكل واحد احتياج »[٥] .

---

(١) أعمال ٤ : ٣٢ — ٣٧ (٢) أعمال ٦ : ١ — ٥
(٣) متى ١٣ : ٢٢ (٤) متى ٩ : ٢٠ — ٢٣
(٥) أعمال ٢ : ٤٤ — ٤٥

ولعل الاتجاه إلى هذا الفهم هو الذى ولد تهمه للمسيح أدين من أجلها وهى أنه كان يتآمر ليكون « ملك اليهود »(١) . مع أن اليهود أنفسهم كانوا يهدفون إلى هذه الحركة القومية ، ولعل المسيح كان على علم بما يهدفون إليه فلم يطعن قط على الحكومة المدنية ، ولذلك نراه كان حذراً أشد الحذر من التطرف فى الرأى والحكم ، وأنه كان ينصح بالكياسة البعيدة أشد البعد عن الثورة السياسية ، وقد نصح أحد الفريسيين الذى أراد أن يستنطقه الحكم فى ذلك مجربا له ومختبراً ، وكانت نصيحته أن يعطوا « ما لقيصر لقيصر وما لله لله(٢) .

بل إن المسيح نفسه قد دفع الجزية المقدرة عليه وقام بإيصالها عنه إلى السلطة المختصة تلميذه بطرس(٣) .

وكان المسيح لايرى أن من حقه مواجهة النظم الاقتصادية أو السياسية القائمة فى وقته ، بل نراه على العكس يهاجم ذوى النفوس الثائرة المتحمسة إلى ذلك .

أما هو فكان يبغى ثورة أعمق من هذه الثورة وأبعد مرمى وأبقى أثراً هى ثورة المبادىء الأخلاقية المثلى التى إذا لم تتحقق كانت كل الإصلاحات قشرية سريعة الزوال ، فإنه إذا استطاع أن يطهر قلوب مجتمعه من الشهوات الأنانية ومن الفجور والقسوة ، فإن ذلك هو فاتحة الدخول فى المملكة .

وكان همه أن يضع الخطوط الأساسية لمبادىء أخلاقية مثلى تكون هى القواعد للمملكة المنتظرة عندما يحل موعدها ، لأن هؤلاء سيكونون خليقين باستحقاقها .

---

(١) يوحنا ١٨ : ٣٣ ، ٣٧ و ١٩ : ١٢

(٢) متى ٢١ : ٢٢ (٣) متى ١٧ : ٢٤ — ٢٧

وعندما تتحقق تلك المبادىء وهذه الأسس فسوف لا يبقى أثر لتلك النظم التى نشأت من شره الإنسان وغشمه ، وما قد استتبع ذلك من الحاجة إلى قوانين البشر ؛ فإن الثورة التى تبنى على غير مبادىء المسيح وأسسه تحدث تغيراً موقوتاً ، أما مبادؤه إذا تمت فإنها تكون أعمق الثورات وأبقاها أثراً ولكن تحقيقها كان يتطلب زمناً يعبد الله فيه بالروح والإخلاص والصدق وبكل عمل طيب للإنسان لا بالألفاظ الزائلة والمظاهر الكاذبة .

ولكن هل كانت هذه القواعد جديدة فى دعوة المسيح ؟

أكبر الظن أن هذه المبادىء وتلك الأفكار كانت تجيش بها صدور اليهود من قبل المسيح بزمن ليس بالقليل ، وقد ملئت كتب أنبيائهم بمعانى المحبة والإحسان إلى الأعداء والعفو والصفح والتعايش فى حال من الصلاح والصدق والتوبة ، وما كان المسيح إلا نهاية سلسلة أنبياء بنى إسرائيل الذين ورثوا هذه المبادىء وتلك الوصايا ؛ فالتقت بذلك مبادؤه مع ما هو مقرر عنـــد اليهود فى كتب أنبيائهم بتحقيق مملكة الرب على يد المسيح لتعز سلطانهم وتحقق أمانيهم .

بيد أننا نرى الأناجيل تتعجل هذه المملكة قبل أوانها ، فهى تنطق وتسند منطقها إلى المسيح بأن موعد الملكوت قد قرب « الحق أقول لكم إنى لا أشرب بعد من نتاج هذه الكرمة إلى ذلك اليوم حينما أشربه جديداً فى ملكوت الله » .

وأسندوا إليه قوله لأتباعه « لا تكملوا مـــدن إسرائيل حتى يأتى ابن الإنسان »[1] ثم أخره قليلا فيما بعد بقوله :

---

(١) متى ١٠ : ٢٣

« إن من القيام ههنا قوما لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتيا فى ملكوته »(١) « لا يمضى هذا الجيل حتى يكون هذا كله »(٢) ولكنه أتى عليه وقت رأى فيه من حسن السياسة أن يحذر رسله من القطع بتحديد ذلك الوقت بقوله « وأما ذلك الوقت وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين فى السماء ولا الإبن إلا الآب »(٣) وأنه سيسبق بعلامات تدل عليه وإرهاصات تتقدمه .

وكان يجعل حلول هذا الملكوت من أعمال الله تعالى ومعجزة من عطاءاته يفاجأ الناس بها من قبل العناية الإلهية .

عودة المسيح لتحقيق أمانى المملكة :

وأيا ما كان الأمر فإنه كانت هناك عقيدة مشتركة لدى الجماعات المسيحية المنتشرة فى أنحاء العالم بأن المسيح سيعود لإقامة مملكته على هذه الأرض ، وأن الذين يؤمنون به هم وحدهم الذين ينالون النعيم المقيم فى الدار الآخرة ، وكان الاعتقاد فى دعوته هو القاعدة الأساسية للدين المسيحى فى أول عهده .

أما موعد عودته على التحقيق فقد اختلف فيه المسيحيون كاختلافهم فى فهم المعنى المراد من الملكوت الموعود به .

وكان الاعتقاد السائد لدى جميع الرسل أن المسيح سيعود قريباً ليقيم ملكوت السموات على الأرض . يقول بطرس « نهاية كل شىء قد اقتربت

---

(١) متى ١٦ : ٢٨ .

(٢) متى ٢٤ : ٣٤ ولوقا ١٣ : ٣٠ .

(٣) متى ٢٤ : ٣٦

فتعقلوا واصحوا للصلوات »(١) وتقول رسالة يوحنا : « أيها الأولاد هى، الساعة الأخيرة وكما سمعتم أن ضدا لمسيح يأتى قد صار الآن أضداد كثيرون من هنا نعلم أنها الساعة الأخيرة »(٢) .

ولعله يعنى بأضداد المسيح [نيرون ـ فسباسيان ـ دوستميات] .

وحين مات «نيرون» وخرب « تيطس » « الهيكل » سنة ٧٠ م ولما دمر « هدريان » أورشليم استبشر كثير من المسيحيين بهذه الكوارث واعتبروا ذلك بشائر تدل على عودة المسيح ، وربما كان ترحيبهم بذلك بناء على النص الذى يدل على علامات تسبق تلك العودة والتى منها وجود الحروب والزلازل فى الأماكن المختلفة .

ولما عمت الفوضى فى أوصال الامبراطورية فى أواخر القرن الثانى ظن بعضهم ومنهم « ترتليان » بأن نهاية العالم قد دنت ، حتى إن أحد قساوسة السوريين خرج بأتباعه إلى الصحراء ليلتقى بالمسيح فى منتصف الطريق ، كما أعلن آخر بأن المسيح سيعود خلال عام واحد .

ولما لم تصدق كل هذه الأحداث كعلامات مؤذنة بعودة المسيح خفف من وقع خيبة الأمل هذه التى انتابت الأتباع ماشاع من أن موعد عودته سيكون فى خلال ألف عام ، وكان هذا الرأى فى رسالة معزوة إلى برنابا ، ولكن كان هناك من العقلاء من هو أشد حذراً فذهب إلى أن عودته ستكون حين ينقرض جيل اليهود أو شعبهم عن آخره ، أو حتى لم يبق أحد من غير اليهود لم يصل إليه الإنجيل ، أو أن المراد بالمجىء هو مجىء الروح القدس أو المعزى الذى سيرسل إليهم فيما بعد(٣) كما فهمه بعضهم .

---

(١) ١ بطرس ٤ : ٧ .

(٢) ١ يوحنا ٢ : ١٨ .

(٣) يوحنا ١٤ : ١٦ ، ٢٦ و ١٥ : ٢٦ .

وأخيراً انتقلت فكرة إقامة الملكوت عند المسيحيين من الأرض إلى السماء ؛ ومن حياة الناس فى الأرض إلى الجنة فى الدار الآخرة ، وذلك بعد أن صار القول بعودة المسيح بعد ألف عام باطلا من القول وزيفا عن الصواب فى نظر الكنيسة .

لماذا رفض اليهود المسيح ومملكته ؟

إن اليهود يعتقدون أن عظمة الملك والسلطان لاتقوم إلا على سعة وبسطة فى المال والممتلكات ، وهذا لم يتوفر فى المسيح ـ عليه السلام ـ وهو المزمع أن يكون رئيسا للمملكة المدعو إلى إقامتها ـ فلم يروا فيه إلا شخصا زاهداً يتسم بالقناعة ، ولا يملك من الدنيا مايسند إليه رأسه (١)، والذين اتبعوه وآمنوا به هم قوم من الضعفاء من فقراء الصيادين ومن غير ذوى المكانة العظيمة فى مجتمعهم ، ومن نساء فقيرات وأرامل متعبات ليس لهن مايعزز مكانتهن، فانقطع منهم الرجاء فى أن يكون هذا هو المسيح المنتظر والموعود به فى بشائر الأنبياء السابقين ، وبالجملة فقد تبددت فيه آمالهم .

مع أنهم لو آمنوا برسالته وصدقوه فى دعوته وانضموا تحت لوائه وعزروه ونصروه . ربما أنشأ لهم مملكة عظمى قد تفوق مملكة داود وسليمان ، ولكن الله سبحانه وتعالى لم يرد بهم خيراً ؛ فأعمى أبصار كبرائهم الذين أضلوهم السبيل ، لأنهم كانوا يملكون زمام قيادة الشعب اليهودى ، كما كانوا يمتلكون تقاليد السلطة الدينية ، فجنحوا إلى المكابرة والعناد ، وغلب على قلوبهم العتو والاستكبار ، والغرور والعدوان ، حتى اجتمعوا على قتله بقرار صدر من مجلسهم الدينى الأعلى ، وذلك خوفا على مناصبهم وتقربا للدولة

---

(١) لوقا ٩ : ٥٨

الرومانية التي كانت تحكمهم ، كما جاء في الإنجيل الرابع حيث قال الكهنة فيما بينهم (إن تركناه هكذا يؤمن الجميع به فيأتي الرومانيون ويأخذون موضعنا وأمتنا ، وأنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها(١) ، وقد أسسوا حكمهم عليه بالموت بعلة ادعائه الملك تملقاً منهم لقيصر وقالوا « كل من يجعل نفسه ملكاً يقاوم قيصر »(٢)

فلما رأوا أن العامة يؤمنون به ويتبعونه خافوا من انقلاب الشعب عليهم وأخذوا يصدونهم عن دعوته بحجة أن تعاليمه ضد شريعة الله المقررة في التوراة ، مثل خرق حرمة السبت حين (جاع تلاميذه وابتدأوا يقطفون سنابل ويأكلون)(٣) مع أن له وجهة نظر قوية ، إذ أنهم كانوا حينئذ مضطرين لمخمصة فيهم والمضطر يحل له ما يحرم في العادة .

على أنه قلد في ذلك أباه داود — عليه السلام — كما بين(٤) وكذلك أشفى مريضاً يوم السبت(٥) .

كما جعلوا عدم غسل أيدي تلاميذه عند أكل الخبز خرقاً لشريعة الناموس لكنه حاجهم في ذلك(٦) إلى غير ذلك من تقاليد يألفونها عن الآباء واعتقدوا أنها أحكام دينية مؤيدة .

كما كانوا يسخرون من آياته ومعجزاته ويحسبونها نوعاً من السحر أو الشعوذة ويهزأون بمن يؤمن بها من العامة لأنها في نظرهم زيف وخداع ، وكانوا يقولون « لا يبعث الله نبياً من الناصرة أو من قرى الجليل »(٧)

---

(١) يوحنا ١١ : ٤٨ — ٥٠
(٢) يوحنا ١٩ : ١٢
(٣) متى ١٢ : ١
(٤) متى ١٢ : ٢ - ٦
(٥) يوحنا ٥ : ٨ ، ٩
(٦) متى ١٥ : ٢ - ٦ ويوحنا ٧ : ٢١ - ٢٤
(٧) يوحنا ٧ : ٥٢

الفصل الثانى

الملكوت

معناه وتحديد وقته
فى القرآن الكريم والسنة المطهرة

تحقيق فى البشارات بالمسيح :

من عادة الباحث أن يعقب على ماقد يعترضه من مسائل قد اختلفت فيها آراء الناظرين وتحقيقات المحققين ، وقد يرجح بعض المذاهب إذا كان يمتلك يعقله دليل الترجيح ، وقد يوفق بين المذاهب ، وربما استعان بالنتائج المختلف عليها على ابتكار الجديد من الآراء ، ولكن هذا لا يكون إلا بعد التحقيق الدقيق والدراسة الواعية .

ولما كانت قضية تحقيق الملكوت من القضايا التى اختلفت فيها الآراء وتضاربت فى شأنها النصوص. تطلب هذا أن نقف وقفة التحقيق والتمحيص والتصحيح ، وذلك من خلال النظر فيما ورد من نصوص التوراة والأنبياء وبشارات الإنجيل مما رجحه مفكرو المسيحية خاصا بالتبشير بالمسيح — عليه السلام — بعد إعادة النظر فى هذه النصوص بما يتحدد معه مفهوم الملكوت ووقت وقوعه .

وربما يحسن بنا أن نعيش فى صحبة الفكر المسيحى فى اقتباس الفقرات التى يدعى أنها تبشر بمجىء المسيح والتى يقال إنها تعينه نبيا وملكا على ملك كملك داود وسليمان — عليهما الصلاة والسلام — حتى لا نكون

بعيدين عن مقتضيات النصوص المسلم بها عند أرباب الفكر والاستنباط فى المسيحية . وهاك عرض هذه النصوص :

١ — قالوا : إن أول ماقيل عن مجيئه هى العبارة التى نطق الله نفسه بها للحية التى تمثل الشيطان فيها، إذ قال عن نسل المرأة(١) « وهو(٢) يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه »(٣)

والمعنى أن المسيح يسحق رأس الحية التى تمثل الشيطان فيها بالفداء . وهى — أى الحية — تسحق عقب الإنسان بالتعب والكد والمشقة بنزوله إلى الأرض .

٢ — وعن وقت مجيئه(٤) قيل « لايزول قضيب من يهوذا ومشرع من بين رجليه حتى يأتى شيلون »(٥) .

وأيضا قيل : « لأنه يولد لنا ولد ونعطى إبنا وتكون الرياسة على كتفه »(٦) .

٣ — وعن أصله قيل « ويخرج قضيب من جذع يسى وينبت غصن من أصوله »(٧) وأيضا قيل « أقسم الرب لداود بالحق لايرجع عنه من ثمرة

---

(١) أى العذراء .
(٢) أى المسيح .
(٣) تكوين ٣ : ١٥
(٤) قالوا : إن شيلون معناه ملك السلام وهو المسيح عليه السلام .
(٥) تكوين ٤٩ : ١٠ .
(٦) أشعياء ٩ : ٦
(٧) أشعياء ١١ : ١ .

بطنك أجعل على كرسيك »(١) .

٤ — وعن ولادته من عذراء قيل: «ها العذراء تحبل وتلد إبنا وتدعو اسمه(٢) عمانوئيل »(٣)

٥ — وعن ولادته فى بيت قيل: «أما أنت يا بيت لحم أفراته وأنت صغيرة أن تكونى بين ألوف يهوذا فمنك يخرج لى الذى يكون متسلطا على إسرائيل »(٤) .

٦ — وعن كونه ملكا قيل: « أما أنا فقد مسحت ملكى على صهيون جبل قدس »(٥) .

٧ — وعن كونه كاهنا قيل: « أقسم الرب ولن يندم أنت كاهن إلى الأبد على رتبة(٦) ملكى صادق »(٧) ،

(٨) وعن صعوده إلى حيث يريد الله رفعه قيل « صعدت إلى العلا(٨)»

هذا ما اقتبسوه واستنبطوا منه معانى تبشر بالمسيح فى أموره المختلفة والتى منها أنه سيكون ملكا تكون الرياسة على كتفه متسلطا على إسرائيل

---

(١) مزمور ١٣٢ : ١١
(٢) قيل إن معنى « عمانوئيل » الله معنا .
(٣) أشعياء ٧ : ١٤ .
(٤) ميخا ٥ : ٢
(٥) مز ٢ : ٦
(٦) مز ١١٠ : ٤
(٧) ملكى صادق هو ملك ساليم وهى (أورشليم) انظر تكوين ١٤ : ١٨ وعبرانيين ٧ : ١ — ٣
(٨) مز ٦٨ : ١٨

مستويا على كرسى أبيه داود ، وربما يكون ذلك على جبل صهيون مقر حكمه وعاصمة ملكه .

فإذا تجاوزنا ما جاء بشأنه فى الكتب السابقة إلى ما جاء فى روايات العهد الجديد نجد أنها تؤكد أن ملكوت السموات الذى ستكون الرئاسة فيه للمسيح قد أعد لطائفة من البشر جديرة بهذا الملك العتيد على أن تسير فى سلوكها حسب الضوابط والنظم التى قررها المسيح نفسه بأمر ربه .

والذى يعنينا هنا هو المعنى الذى اتفقت عليه نصوص العهدين (القديم والجديد) وهو أن المسيح سيكون ملكا على مملكة ، ولتكن مملكة أبيه داود وكرسى أبيه داود كما جاء فى بشارة الملاك للعذراء « ها أنت ستحبلين وتلدين ابنا وتسمينه يسوع ... ويعطيه الرب الإله كرسى داود أبيه ويملك على بيت يعقوب »(١) .

كما امتلأت القلوب والأسماع عنه فى حياته أنه « ملك اليهود »(٢) ولعلها التهمة التى أودت به إلى النهاية الأرضية كما ذكرنا سابقا ، فقد كانوا يقولون له وهو فى بيت الولاية بعد الحكم عليه وقبل الخروج إلى الصليب « السلام يا ملك اليهود »(٣) .

فإذا كان حقا ما وعد الله بالأنبياء بأن المسيح سيستوى على كرسى داود كملك ... وكان حقا ما ذكره العهد الجديد وما اعتقده أتباعه من أنه

---

(١) لوقا ١ : ٣١ — ٣٣
(٢) يوحنا ١٥ : ٦ و ١٢ : ١٥ و ١٨ : ٣٧
(٣) لوقا ١٥ : ١٨

سيحقق هذه المملكة ... فإنه لا بد من وقوعها وحصولها لتحقيق صدق النصوص فى ذلك لأنه (ليس الله إنسانا فيكذب ولا ابن آدم فيندم »(١) ولما يسندونه إلى الله من قوله « لا انقض عهدى ولا أغير ما خرج من شفتى »(٢) ولما يقوله بولس فى إحدى رسالاته « الله المنزه عن الكذب قبل الأزمنة الأزلية »(٣) .

ولكى يأتى عمل الفكر بالنتائج الصحيحة التى لا تقبل النقيض لا بد أن يعيش ذلك الفكر مع المسيح فى رسالته ليفقه مدلولاتها ومراميها تأسيسا للأحكام وتقريرا للنتائج .

من مفاهيم رسالة المسيح :

حين أرسل المسيح : — عليه السلام — حدد الهدف من رسالته كما جاء فى روايات الأناجيل ، وهذه أهم أهداف الرسالة :

١ — قال المسيح إنه مقيم على شريعة التوراة مصدق لما جاء فيها مكمل لبعض تعاليمها « ما جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل ...)(٤) .

٢ — أنه اقتصر على أن يقوم بدعوة بنى إسرائيل إلى الإيمان خاصة دون غيرهم من الأمم ، فقال لتلاميذه الإثنى عشر لما أرسلهم « إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامرين لا تدخلوا بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة »(٥) .

---

(١) عدد ٢٣ : ١٩
(٢) مز ٨٩ : ٣٤
(٣) تيطس ١ ، ٢
(٤) متى ٥ : ١٧
(٥) متى ١٠ : ٥ ، ٦

وحينما كان فى نواحى صور وصيدا وخرجت عليه امرأة كنعانية ليست من بنى إسرائيل ، وطلبت إليه أن يشفى ابنتها المجنونة لم يجبها بكلمة ، فرجاه تلاميذه أن يصرفها لأنها تصيح وراءهم ، فكانت إجابته لهم « لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة »(١) .

وفى الجواب قصر صفة الرسالة على فئة موصوفة بانتمائهـــا إلى بنى إسرائيل ، لكن الكنعانية أصرت وطلبت منه العون على مرض ابنتها راجية ومسترحمة (فأجاب وقال : ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب ، فقالت يا سيد والكلاب أيضا تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها ، حينئذ أجاب يسوع . .)(٢) .

فهذا السيد! نفسه يحرم نتاج معجزاته على غير الاسرائيليين ويقرر أن ما يأتى به من قوات ومعجزات إنما هو حل لبنى إسرائيل الذين وصفهم بالبنين محرم على غيرهم الذين أسماهم بالكلاب ، مع ما هو معروف من أن المعجزة إنما تساق للتصديق على دعوى النبوة ، لكنه لما لم تلزمه لغير الإسرائيليين لم يجب ، فإذن هو لم يزمع أن يجعل دعوته تتعدى بنى إسرائيل قط .

ومن عادة النبى إذا أراد أن يبيح ما كان محرما أو يشرع أمرا أو يخرق قاعدة مقررة أن يفعل ذلك الأمر ولو مرة واحدة أو يسكت عن فعله أمامه أو يقرره بقوله فيكون به جواز فعله ، لكننا لو تتبعنا سنى دعوة المسيح — عليه السلام — لا نجده اتجه إلى غير بنى إسرائيل من الأمم على الإطلاق .

---

(١) متى ١٥ : ٢٤

(٢) متى ١٥ : ٢٦ ، ٢٧ ومرقس ٧ : ٢٤ — ٣٠

أما استجابته للكنعانية فكان عطفا عليها وإشفاقا ولكى يقطع صياحها وصراخها .

٣ — بعد ما بين قصر دعوته على بنى إسرائيل خاصة بين أنه جاء ليدعو الخطاة إلى التوبة فإنه (لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى ... لأنى لم آت لأدعو أبرارا بل خطاة إلى التوبة)(١) .

وليبشر المؤمنين بالجنة وينذر الأشرار والخارجين على النظام بالنار ، « ثم يقول الملك للذين هم عن يمينه — أى المسيح — تعالوا يا مباركى ربى رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم ... ثم يقول أيضا للذين هم عن اليسار إذهبوا عنى يا ملاعين إلى النار الأبدية المعـــدة لإبليس وملائكته)(٢) .

كما كان من هدفه التبشير بالطوبى للمساكين بالروح ومنكسرى القلوب والحزانى والودعاء لأنهم يرثون الأرض ، وللجياع فى سبيل المسيح والرحماء والأتقياء المطرودين من أجله(٣) .

هذه الأهداف وغيرها كانت أهم الوسائل لإعداد الأمة التى سترث الأرض فيما بعد فضلا عن أن ترث مرضاة الرب العظيم .

وعلى هذه المبادىء كان يرسل رسله إلى المدن والقرى المخلفة لدعوة الناس من بنى إسرائيل إلى التوبة وعمل البر مع المحافظة على السلم والسلام والصبر والتسامح وتجملهم بحسن الخلق « وأى مدينة أو قرية دخلتموها فافحصوا من فيها مستحق ... وحين تدخلون البيت سلموا عليه ... ومن

---

(١) متى ٩ : ١٢ ، ١٣
(٢) متى ٢٥ : ٣٤ ، ٤١
(٣) أنظر متى ٥ : ٣ — ١٢

لا يقبلكم ولا يسمع كلامكم فاخرجوا خارجا من ذلك البيت أومن تلك القرية وانفضوا غبار أرجلكم)(١) .

وعلى وجه الإجمال نستطيع أن نلخص من النصوص الواردة فى العهدين (القديم والجديد) المبشرة بالمسيح والمحددة لسمات رسالته وخصائصها ما يأتى :

١ — أن المسيح — عليه السلام — يولد فى بيت لحم من أعمال الجليل وتكون ولادته من عذراء .

٢ — أنه يقوم بوظيفة الرسالة الإلهية مع كونه ملكا متسلطا على بيت يعقوب وتكون مملكته التى يحكمها كمملكة داود عليه السلام .

٣ — أنه بعد نهاية الحياة على الأرض يصعد إلى العلا .

٤ — أن رسالته خاصة ببنى إسرائيل دون سواها ، ومصدق لما بين يديه من التوراة ، عامل بما فيها مكمل لتعاليمها مع المزيد من الحث على العفو والتسامح وحسن الخلق .

٥ — أن من أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار .

٦ — أن الطائعين والودعاء يرثون الأرض والملكوت المعد منذ تأسيس العالم .

٧— أن النصوص كثيرة تشير إلى أن المملكة الموعودة مادية أرضية حتى كان السائد لدى الأتباع والأعداء على السواء أنه ملك اليهود ، لأن مملكة داود كانت أرضية . فهل تحققت مملكة المسيح التى دعا ودعت إليها الرسل وانتظرها الأتباع ردحا من الزمن ؟

---

(١) متى ١٠ : ١١ - ١٤

نحو فهم صحيح لتحقيق الملكوت

[كذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره]

متى ٢١ : ٤٣

إنه لكيلا يبقى إخواننا المسيحيون فى حيرة من أمرهم، ولكيلا يظنوا أن المسيح يكذبهم ، يمكن القول بأن ذلك الملكوت يمكن توقعه فى مجيء المسيح الثانى حين انقضاء الدهر ليقضى على الدجل والدجال فى آخر الدنيا وليصلح الأرض بالإيمان بعد ما استشرى فيها الفساد والكفر والضلال ، وبذلك تكون على دعوته نهاية العالم ، وإنا لنجدى فى نصوص الإنجيل ما يؤيد هذا المسلك .

فإن المسيح لما رأى انتظار القوم لحلول الملكوت أبهم أخيراً تحديد وقته على وجه التعيين فقال : « وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا ملائكة السموات إلا أبى وحده »(١) .

ولكنه أراد أن يعرفهم ذلك لكن بطريقة ضرب الأمثال كما اعتاد أن يعلمهم ، فضرب لهم مثل زوان الحقل ، ولكنهم كانوا لا يفهمون أمثاله ، فتقدم إليه تلاميذه فى البيت قائلين :

« فسر لنا مثل زوان الحقل ، فأجاب وقال لهم : الزارع الزرع الجيد هو ابن الانسان، والحقل هو العالم ، والزرع الجيد هو بنو الملكوت ، والزوان هو بنو الشر ، والعدو الذى زرعه هو إبليس ، والحصاد هو انقضاء هذا العالم ، يرسل ابن الإنسان ملائكته فيجمعون من ملكوته

---

(١) متى ٢٤ : ٣٦

جميع المعاثر وفاعلى الإثم ويطرحونهم فى أتون النار ، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان حينئذ يضىء الأبرار كالشمس فى ملكوت أبيهم ، من له أذنان للسمع فليسمع)(١) .

هذا هو تفسيره لمثل زوان الحقل المذكور فى الإصحاح الثالث عشر من متى آية ٢٤ — ٣٠ والمثل فيه من الرمز والتشبيه صورا بديعة ، فهو يبين فى جملته أن بنى الملكوت هم الناجون عند الله لأنهم ساروا على نهج ابن الإنسان ، وأنه عند انقضاء العالم سوف يعلو المؤمنون ، وفى أسفل سافلين يكون العصاة والكافرون .

ولما كان التلاميذ فى شغف من معرفة وقت حلول الملكوت الذى يأتى عند انقضاء الدهر ، أكد لهم أن لذلك اليوم مقدمات وعلامات متى تأت يكون الملكوت ، لجاء فى متى :

« وفيما هو جالس على جبل الزيتون تقدم إليه التلاميذ على انفراد قائلين: قل لنا متى يكون هذا وماهى علامة مجيئه وانقضاء الدهر ، فأجاب يسوع وقال لهم : انظروا لا يضلكم أحد فإن كثيرين سيأتون باسمى قائلين أنا هو المسيح ويضلون كثيرين وسوف تسمعون بحروب وأخبار حروب ، انظروا لا ترتاعوا لابد أن تكون هذه كلها ، ولكن ليس المنتهى بعد ، لأنه تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل فى أماكن ، ولكن هذه كلها مبتدأ الأوجاع ، حينئذ يسلمونكم إلى ضيق ويقتلونكم وتكونون مبغضين من جميع الأمم لأجل اسمى ، وحينئذ يعثر كثيرون ويسلمون بعضهم بعضا ويبغضون بعضهم بعضا ، ويقوم أنبياء كذبة ويضلون كثيرين ، ولكثرة الإثم تبرد محبة الكثيرين ، ولكن الذى يصير إلى المنتهى فهذا يخلص ، ويكرز

---

(١) متى ١٣ : ٢٦ — ٤٣

ببشارة الملكوت هذه فى كل المسكونة شهادة لجميع الأمم ثم يأتى المنتهى »(١)

هذا هو نص متى وأظنه قد أوضح كثيرا من المعالم كما هدى كثيرا إلى الطريق ، فهاهم تلاميذه يستفهمون (ما هى علامة مجيئك) وكأن العلم بالمجىء الثانى مقرر فى الأذهان والتصديق به مفروغ منه ، والاستفهام إنما هو عن العلامات التى تسبق مجيئه والتى تكون دليلا على تحقق ذلك المجىء .

كما يبدو من تساؤل التلاميذ والأتباع الصادقين أن ذلك المجىء الثانى سوف يكون مقرونا بقرب نهاية الدهر ، وكأن مجيئه الثانى علامة أيضا على انقضاء الدهر وقرب الساعة « وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها »(٢) .

والمسيح ـ عليه السلام ـ يوقظ الأذهان إلى أن من علامات المجىء الثانى ما يأتى :

١ — أن يدعى النبوة من ليس بنبى متقمصا شخصية المسيح داعيا إلى غير دينه مسنداً تنبؤاته الكاذبة المزعومة إلى المسيح ابن مريم ، وهو من هؤلاء جميعا براء ويحذرنا من مكرهم وخداعهم « احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة من ثمارهم تعرفونهم ... ليس كل من يقول لى يارب يارب(٣) يدخل ملكوت السموات بل الذى يفعل إرادة أبى الذى فى السموات ، كثيرون سيقولون لى فى ذلك يارب يارب أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة فحينئذ أصرح لهم إنى لم أعرفكم قط ، اذهبوا عنى يافاعلى الإثم »(٤) ،

---

(١) متى ٢٤ : ٣ - ١٤ . (٢) الزخرف ٦١ .
(٣) (رب) هنا معناها « معلم » كما ورد ذلك فى يوحنا ١ : ٢٨ .
(٤) متى ٧ : ١٥ - ٢٣ .

وهؤلاء يسمون أيضا بالمسحاء الكذبة (١) ، وكل مسيح بعد ابن مريم كذاب ودعواه كاذبة وآخر هؤلاء جميعاً هو المسيح الدجال الذى يأتى آخر الزمان ، مع التحفظ الشديد على صدق نبوة محمد بن عبد الله نبى الإسلام لأن عيسى بشر بوجوده ومن قبله بشرت التوراة وكتب الأنبياء .

٢ — يكون التدافع فى الأرض بين الشعوب والأمم والممالك، وتكون الحروب ومثيراتها حتى يرتاع الجميع من هولها بسبب الانحراف عن تعاليم السماء حتى يصل الحال إلى فناء أمم وقيام أمم أخرى مكانها ، ويقترن ذلك باضطرابات تتخلف عنها المجاعات والأوبئة والزلازل فى العقائد والأمن وسائر الروابط الإنسانية ويستعلن الكفر والضلال فى كل المسكونة ، وكل هذا وغيره مبتدأ الآلام والمآسى والزلازل المدمرة فى الأرض .

٣ — يصل الاضطهاد لأتباع الدين إلى ضيق لامتنفس فيه حتى تتفق كل الأمم على بغضهم ويموتون بسبب إصرارهم ودفاعهم عن دين الله وشرعه كما يصل اضطراب الطوائف الدينية فيما بينهما إلى حد لايطاق حتى تفتقد المحبة فى حنايا القلوب ويدعى الألوهية المتكبرون وذوى الجهل والدجل ومنهم المسيح الدجال .

٤ — حين تتحقق كل هذه الأحداث فإنه يحل وقت الملكوت ويبشر به فى كل المسكونة وتكون البشرى بالملكوت لكل الأمم ويكون ذلك تحت سلطان عيسى عليه السلام وإمرته ويكون هو المستعلى على كرسى أبيه داود كما قالت الأنبياء من قديم وكما هتف الإنجيل بذلك فى غياض المسيحية الأولى وهناك يقال: « أوصنا (١) لابن داود مبارك الآتى باسم الرب أوصنا

---

(١) مرقس ١٣ : ٢٢

(٢) أوصنا معناه (مبارك) .

فى الأعالى »(١) وهنا يحل الأمن والرخاء ويعم العدل والإيمان ويكثر المال حتى يفيض عن الناس فلا يجد من يأخذه .

نعم سوف لا ينقضى الدهر حتى يأتى ابن الإنسان المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام مرة ثانية ويقيم ملكوت السموات ويكون هو قاضيه وحاكمه، وسوف يقاوم الشر والدجال ويحارب الدجال ويقتله ، ويتعقب الأشرار فلا يبقى منهم أحدا .

إنه وقت تكون فيه الفتن كقطع الليل المظلم ، ولن ينجو إلا من عصم الله توفق إلى الخلاص واتبع هدى الله عز وجل ، ويكون حكمه بالشريعة العامة الخاتمة شريعة محمد بن عبد الله ﷺ الذى أخبر به فى الإنجيل وأخبرت التوراة من قبل الإنجيل .

٥ — يأتى المنتهى عقب حكم عيسى عليه السلام ، وبعد قتله المسيح الدجال ، ونشره دعوة الحق والإيمان بلسان القرآن ودعوة القرآن كما أخبرت به تعاليم الإسلام .

وهنا قضية يتفق عليها العقلاء ، مسيحيون كانوا أو غير مسيحيين ، ولا يختلف فى التصديق بها اثنان ، وهى أن العالم لم ينتض بعد ولم تأت نهايته حتى نظن أن مملكة الرب لم تتحقق ، وهذه قضية لا ينكرها عقل صبى، نعم تقع بعض مقدمات النهاية مثل الحروب والتدمير والزلازل فى الأماكن، وبعض المجتمعات البشرية تبغض أهل الدين ، وهذه أمور اعتاد العالم وقوعها منذ عهد المسيح حتى اليوم ، لكن المهم هو أنه لم يأت المسيح بعد ليقيم ملكوت السموات .

---

(١) متى ٢١ : ٨ .

وإذن فهناك أمل فى وقوع ذلك الملكوت ، وأن العالم لينتظر ويتأهب للمجىء الثانى للمسيح — عليه السلام — .

وهنا وقفة أقفها بين يدى القارئ بشأن هذه القضية ، ولها من وجهات النظر ما يبررها . والقضية التى أحب أن أثيرها هى أن ما أخبر به المسيح — عليه السلام — من مجيئه الثانى قبيل انقضاء الدهر ليقيم مملكة قائمة على أسس قويمة من الدين ، وأنها ستكون مملكة مثالية فى سعادتها تحت تطبيق الشريعة التى ينادى بها المسيح آنذاك هى قضية حق وقول صدق ؛ هذه القضية قررها الإسلام فى كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

كما أيقظ العقول إليها نبى الإسلام عليه وعلى المسيح أفضل الصلاة والسلام ، فقيل ﷺ : « بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء »(١) .

ويشير بهذا الحديث الشريف إلى شرح أمر الإسلام قبيل نهاية الدنيا .

كما أخبرنا نبى الإسلام بأنه سيكون أنبياء كذبة آخرهم المسيح الدجال أحد المسحاء الذين أخبر عنهم عيسى - عليه السلام - .

وهذا المسيح الدجال سيثير فتناً يزلزل بها عقائد الناس وحياتهم ، ويوشك أن يهوى الجميع إلى الضلال والهلاك ، مما يجعل العناية الإلهية تهتم بما يصير إليه أمر العباد فيرسل لهم مبصرا وهاديا يطهر الله به الأرض من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، يصلح ما فسد ويقوم ما أعوج ، فمن أطاعه خلص ونجا ، ومن عصاه هلك وهوى ، وأن الذى يأتى للهداية هو المسيح عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام .

والله أكبر حين يتلى على أسماعنا قوله « ويكرز ببشارة الملكوت هذه فى كل المسكونة شهادة لجميع الأمم ثم يأتى المنتهى » .

---

(١) رواه مسلم والنسائى وابن ماجه

[وبذلك يتفق عيسى ومحمد على أن العالم ستسوده دعوة عيسى وحكم عيسى قبل انقضائه ، لكن بدعوة محمد عليه الصلاة والسلام .

والذى يؤكد نبوءة محمد هذه هوما ذكره المسيح من أن بشارته ستكون بجميع المسكونة ولكل الأمم ، لأن عيسى فى رسالته الأولى لم يرسل إلا لبنى اسرائيل خاصة ولم يرسل لجميع الأمم ، وهذا ما عرفناه وسجله التاريخ من بعد أن سجله الإنجيل .

أما فى المجىء الثانى فإن بشارته ستكون بجميع الأمم حقا وصدقا ، وهو رب الشريعة الحاكمة بإذن الله تعالى .

ولكن المسيح — عليه السلام — حين ينزل لا يكون حكمه إلا بالقرآن الكريم ، لأنه كتاب الشريعة الخاتمة ، ولأنه المتضمين لما فى التوراة والإنجيل ، وبه كمال الدين وتمام النعمة ، كما قال سبحانه (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا)(١) .

وقد أجد لزاماً على أن أبسط القول فى مسألة نزول عيسى — عليه السلام — فى آخر الزمان فى رأى الإسلام ، وأن أحقق مسألة بقاء المسيح حياً حتى الآن ، وإلى نزوله فى المجىء الثانى فى رأى الإسلام أيضا ، وهو ما يلتئم به المعنى فى الفهم الصحيح لإقامة ملكوت السموات وملك دواد ، كما تبرز به الحلقة المفقودة لاكتمال الحقيقة التى طالما تفقدها المسيحيون الأوائل والأواخر من خلال النصوص الواردة إليهم ، وقد تضاربت فى المعنى وتحديد الموعد ، حتى صاروا فى حال من اليأس من تحقيق ما وعد به المسيح من إقامة مملكة الرب بكرسى داود عليه السلام ، كما أرجو أن يمس هذا القول شغاف القلوب بعد أن تستعذبه الآذان وتعيه العقول .

---

(١) المائدة .

نزول عيسى فى آخر الزمان :

تتفق روايات المسلمين على أن عيسى — عليه السلام — نجا من أيدى من أرادوا قتله ، وأنهم قتلوا شخصاً آخر ظانين أنه المسيح .

وذهب الجمهور إلى أن النجاة كانت برفعه إلى حيث شاء الله بروحه وجسده بحيث لا تصل فى مكانه المرفوع إليه يد إنسان ، ولدينا من المرجحات لهذا الرأى ما يرفع عنه الاحتمال ، ولكن ليس هنا ما يحتمل ذكر هذه المرجحات ، وهذا مخالف لمن ذهب إلى أن المـــراد بالرفع رفع الروح(١) ، أو رفع

---

(١) الذى ذهب إلى أن الرفع بالروح فقط هو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ومن تابعه ، وذلك أنه يحمل معنى التوفى فى آية آل عمران « إنى متوفيك ورافعك إلى » على معنى الموت ، ويؤول نزول عيسى فى آخر الزمان وحكمه على الأرض بغلبة روحه وسر رسالته على الناس وهو ما غلب فى تعليمه من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف على ظواهرها والتمسك بقشورها . . فزمان عيسى على هذا التأويل هو الزمان الذى يأخذ الناس فيه بروح الدين والشريعة الإسلامية لإصلاح السرائر من غير تقييد بالرسوم والظواهر .

هذا ، وقد عقب صاحب المنار على ذلك بقوله : هذا ما قاله الأستاذ الإمام ، ولكن ظواهر الأحاديث الواردة فى ذلك تأباه .

ثم قال الإمام فى شأن الأحاديث الواردة فى الرفع والنزول آخر الزمان بأنها أحاديث آحاد متعلقة بأمر اعتقادى لأنه من أمور الغيب ، والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالقطع ، لأن المطلوب فيها هو اليقين ، وليس فى الباب حديث متواتر . وسئل عن المسيح الدجال وقتل عيسى له فقال : =

المكانة(١) لأنه بعيد الاحتمال .

أما القول بنزول عيسى فى آخر الزمان(٢) فهو مذهب الجمهور أيضا من العلماء والمفسرين والمحدثين ، وقد قرروا بأنه يمكث بعد النزول مدة فى الأرض إتتأرجح الروايات فى تحديدها ما بين سبع سنين إلى أربعين سنة ، وأن الهدف من نزوله هو قتل مسيح الفتنة والضلالة المسمى بالمسيح الدجال وكسر الصليب وقتل الخنزير .

والمعنى هو تحقيق شريعة الإسلام ببشارة عيسى به — عليه السلام — حتى تسود مبادىء الإسلام وينتشر العدل على يده حتى يعم الأمن والرخاء ،

= إن الدجال رمز الدجل والخرافات والقبائح التى تزول بتقرير الشريعة على وجهها والأخذ بأسرارها وحكمها .

(١) والذى قال بأن الرفع مراد به رفع المكانة هو الشيخ محمود شلتوت فى فتاويه ، حاملا معنى التوفى على الموت أيضا ، لأن الموت اشتهر فى التوفى ، ويقول بأن الأحاديث لا تقرر الرفع بل تقرر النزول آخر الزمان ، وهو ما يمكن بحياة جديدة ، وقد سبق الشيخ شلتوت فى ذلك الشيخ الإمام ابن حزم الأندلسى حين قرر قائلا : إن التوفى هو الموت الحقيقى ، وصرف الظاهر عن حقيقته لامعنى له ، وأن عيسى مات ولكنه سيعود قبل القيامة فى آخر الزمان بعد إحيائه بحياة جديدة ، وهو ما رآه ابن عباس فى إحدى روايتين عنه .

(٢) المراد بالنزول هو مجيئه من حيث أقامه الله ، ولايلزم من النزول الهبوط من مكان عال ، لأنه قد ورد بمعنى الجعل مثل قوله تعالى « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » الحديد ، وقوله « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » سورة الزمر .

وإبطاله ما زعمه اليهود من قتله ، وما اعتقده النصارى من تأليهه ، وإبطال عقيدة الصليب بجميع أركانها .

ويستند أصحاب هذه العقيدة إلى آيات من القرآن وكثير من أحاديث السنة المطهرة والآثار الإسلامية .

فقد قال الله فى سورة آل عمران فى مقام البشرى لمريم بعيسى « ويكلم الناس فى المهد وكهلا »(١) .

وفى خطابه لعيسى وهو يعدد نعمه عليه قال تعالى : « إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا »(٢) .

فقد قيل لبعضهم : هل تجد نزول عيسى إلى الأرض فى القرآن ..؟ قال : نعم ، قوله تعالى « وكهلا » وذلك لأنه لم يكتهل فى الدنيا ، وإنما معناه وكهلا بعد نزوله إلى الأرض من السماء .

ومعنى الآية : أن عيسى كلم الناس فى المهد ، ثم رفع قبل أن يكون كهلا وسيكلمهم إذا قتل الدجال وهو يومئذ كهل (٣) .

ويمكن القول بأنه سينزل فى سنه الذى رفع عليه ثم يستمر فى تبليغ

---

(١) سورة آل عمران .

(٢) سورة المائدة ١٠٩ .

(٣) قاله ابن جرير فى تفسيره بسنده عن ابن زيد ، وقاله الحسن بن الفضل البجلى .

رسالة ربه وحديثه للناس حتى يصير كهلا بعد النزول حيث أن الكهولة بعد الأربعين كما هو قول جمهور العلماء ، وهو لم يبلغ الأربعين قبل الرفع ، فتقرر أن يكون كهلا بعد النزول .

هذا ، وإن عامة المفسرين يجعلون الآية دليلا على نزول عيسى ، وذلك لأن كهلا معطوف على متعلق الظرف قبله ، وأنه بذلك أخذ حكمه ، والتقدير : ويكلم الناس طفلا فى المهد ويكلمهم كهلا .

فإذا كان كلامه عقب ولادته مباشرة آية ومعجزة فإنه لابد وأن يكون المعطوف وهو كلامه فى حال الكهولة آية كذلك ومعجزة ، وإلا لم يحتج إلى التنصيص عليه ، حيث إن الكلام من الكهل أمر معتاد مألوف فلا يكون فى الإخبار به فائدة ، أما وأنه قد نص عليه ، وكان التنصيص فى مقام البشارة مرة وفى مقام تعداد النعم أخرى ، فلا بد أن يكون لهذا الإخبار السماوى امتياز زائد عن المألوف ، وهو كون كلامه كهلا آية ومعجزة ككلامه وهو طفل ، ولا معنى لذلك إلا أنه رفع قبل أن يكتهل ثم ينزل إلى الأرض ويمكث حتى يكتهل .

والثابت لدى جمهور المفسرين والمحدثين والمؤرخين أن عيسى بعث وهو ابن ثلاثين سنة ، ومارس وظيفة الرسالة ثلاث سنين ، ورفع وهو ابن ثلاث وثلاثين ، وهو سن دون الاكتهال(١) .

وقالوا بأن مدة مكثه بعد النزول أربعين سنة وهو مدلول حديث

---

(١) ويرى الشهرستانى فى الملل أنه رفع وهو ابن ثلاث وثلاثين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام .

النزول ، وقيل أربعا وعشرين(١) ، وقيل يمكث سبع سنين لأنها تتمة الأربعين ، والمختار عندهم أنه يمكث أربعين .

كما أشار القرآن الكريم أيضا إلى نزول عيسى فى قوله تعالى : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً »(٢) .

فذهب الجمهور إلى أن الضمير فى « موته » يعود على عيسى - عليه السلام - فى أصح الأقوال وأشهرها ، كما روى ابن جرير ، وغيره .

والآية مراعى فيها العموم فى كل الذين يشاهدون ذلك النزول ويدركونه فيؤمنون به ، ويكون معنى الآية :

وما من أحد من أهل الكتاب أدرك ذلك الوقت إلا آمن بعيسى عند نزوله ، وصحح الطبرى هذا القول :

وقال : إنه أصح الأقوال .

وبناء عليه فلا يبقى أحد من أهل الكتاب الموجودين فى زمان نزوله آخر الدنيا إلا آمن به وصدقه .

وإذا كان الضمير فى « موته » عائداً على المسيح فإن أهل الكتاب لن يصعدوا إليه فى محل رفعه ليصدقوا به ، ولكنه ينزل إليهم كما أشارت الأحاديث التى قررت أنه سوف يضع الجزية بعد نزوله — أى يرفعها ويبطل تشريعها - ولا يقبل إلا الإسلام أو السيف .

---

(١) نقله ابن جرير عن كعب الاحبار بسند صحيح .

(٢) النساء ١٥٠ .

فقد روي الشيخان : عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ : ـ قال « والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، وحتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها . . .

ثم يقول أبو هريرة : واقرأوا إن شئتم « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا »(١) .

والأحاديث فى هذا الباب كثيرة تنيف رواياتها عن الأربعين .

ولعل فى نهاية آية النساء « ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا » مصادقة على ماجاء فى نهاية النص عند « متى » عندما يقرر أن التبشير بالملكوت فى كل المسكونة « شهادة لجميع الأمم » .

على أن القرآن قد جعل عيسى — عليه السلام — مما يعلم به أمر الساعة ، فقال تعالى : « وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم »(٢) .

فقد فسرت الآية بأن عيسى علم للساعة وهى القيامة ، أى هو أحد علاماتها ، وقرىء « وإنه لعلم للساعة » بفتح العين واللام ، أى علامة لها .

وقد وردت أحاديث كثيرة بأسانيد صحيحة فى صحيح ابن حبان ، وعند ابن جرير تتصل بالنبى ﷺ : بأنه — عليه السلام — فسر الآية

---

(١) النساء ١٥٩

(٢) الزخرف ٦١ .

بأنها فى نزول عيسى فى آخر الزمان قبل قيام الساعة ، وذلك عن طريق ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والضحاك والسدى وأبى مالك وابن زيد وغيرهم .

وما قيل من عود الضمير فى هذه الآية على القرآن أو على محمد - صلى الله عليه وسلم - أو على ما أتى به عيسى من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من معجزاته فبعيد وغير مستقيم ، لأن السياق فى شأن ابن مريم ، والتأويل لا دليل عليه .

الفصل الثالث

إمكان حياته ومجيئه الثانى قبيل نهاية العالم

هل المسيح حى باق : ؟

إن القول بنزول عيسى - عليه السلام - ثابت بالكتاب كما تقدم ، وهو ثابت بالسنة فى حديث الشيخين عن أبى هريرة - رضى الله عنه - المتقدم ، كما أخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسيره حيث قال : حدثنا ابن علية عن أبى رجاء عن الحسن فى قوله تعالى : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » قال: قبل؟ موت عيسى والله إنه الآن حى عند الله ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون » فقد جزم الحسن بحياة عيسى وأكده بالقسم .

كما قال وكيع : « حدثنا أسامة عن عوف عن الحسن فى قوله تعالى : « إلا ليؤمنن به » قال : عيسى ولم يمت بعد .

ثم إننا لو نظرنا فى هذه الآية لوجدنا أنها أعقبت مباشرة قول الله تعالى « بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما » ومعنى ذلك أنه رفع بحياته التى لا يموت بعدها إلا بعد أن يؤمن به أهل الكتاب قبل ذلك الموت ، وهو ما يبينه الحديث بأنه بعد نزوله فى آخر الدنيا .

وقد قال الحسن قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم —: « إن عيسى لم يمت وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة » فالحسن قد رفع الحديث إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو وإن كان مرسلا إلا أنه فى حكم الموصول المسند ، وقد صرح علماء الأصول بأن المرسل الحسن مقدم على المسانيد .

وهذا الحديث وإن كان خبر آحاد إلا أنه وقع بياناً للإجمال فى الآية

لوجود الاحتمال فى ضميرى (به وموته) فقد عين الحديث أن المراد بهما هو عيسى — عليه السلام — وحديث الآحاد يصلح تفسيراً للمجمل . ومتى وقع تفسيراً للمجمل القطعى كما هنا كان الدليل هو المجمل القطعى المبين بذلك الخبر لا الخبر الذى وقع بيانا له كما هو مقرر عند علماء الأصول توجب العمل به .

وأيضاً قد انعقد الإجماع على نزول عيسى - عليه السلام - ولا معنى لصحة ذلك إلا لأن حياته الدنيوية باقية ومستمرة ولم تنقطع بالموت (١)، وإن احتمل أنه ذهب عنها من الشهوات ما يجعلها خليقــــة بحياة الملائكة مثلا .

أما القول بنزوله بحياة جديدة فهذا يتنافى مع قوله تعالى « قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل »(٢) وقوله تعالى : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون »(٣) .

لأنه يكون قد مات وأحيي أكثر من مرتين ، وليس هناك تخصيص لحياة عيسى من هذا العموم حتى يمكن القول به .

ثم إننا لو نظرنا إلى رفع عيسى حياً ونزوله فى آخر الدنيا على أنه عمل

---

(١) ذهب الدكتور أحمد شلبى فى كتابه (المسيحية) إلى أن عيسى عاش بعد نجاته حتى استوفى أجله إلى أن مات ميتة عادية ثم رفعت روحه إلى السماء مع النبيين والصديقين والشهداء .

وهذا قول يعوزه الدليل !!

(٢) سورة المؤمن ١١ .

(٣) سورة البقرة ٢٨ .

الإرادة العليا غير المقيدة بالنواميس وإن قيدت هى النواميس لزال كل غرابة فى الأمر ، فإن هذه المشيئة العليا هى التى رفعت الحرارة من النار التى أضرمت لحرق إبراهيم - عليه السلام - وذلك حين توجهت إليها تلك المشيئة بأن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم .

كما أنها هى التى جعلت من الشجر الأخضر ناراً فوجد الشىء من ضده.

على أن بقاء عيسى حياً بعد الرفع وحفظ جسده بتلك الحياة إلى وقت نزوله ليس بأعظم فى مجال القدرة العليا من حياة أصحاب الكهف وبقائهم نائمين فى كهفهم ومعهم كلبهم مدة تسع سنين وثلاثمائة سنة من غير أن تخرج أجسادهم عن طبيعتها الحية الغضة الطرية مع طول المكث وانقطاعها عن الزاد وكل مايقوم لحياتهم الجسدية .

وقد وردت القصة فى التوراة كما وردت فى القرآن الكريم .

وهناك قصة تعترف الأديان الثلاثة بحقيقتها ووقوعها ، وهى قصة الرجل الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها فقال أنى يحي هذه الله بعد موتها ، وهو المدعو فى بعض الروايات باسم العزير - فأماته الله مائة عام ثم بعثه من الموت على حاله الجسدى الذى مات عليه دون أن يتغير جسده مع انقطاع مقومات الحياة .

وإذا به يجد ما معه من الطعام والشراب منذ مائة عام غضاً طرياً كأن فاكهته قطعت للحظتها ، وطعامه صنع لوقته ، وشرابه قد استجلب من مصدره اللحظه فلم يأسن ولم يتسنه الطعام ، ومن عجيب ماتريناالقدرة الإلهية العظيمة أن يكون فى القصة كائنان حيان الرجل والحمار الذى يصحبه ، وبعد موتهما يأخذ كل منهما شكلا يضاد شكل الآخر ، فأما الحمار فإنه يصير بعد الموت تراباكشأن التقدير المطرد لكل ميت وصيرورته إلى تراب .

وأما الرجل فقد توجهت إليه العناية بالحفظ عن الفناء فلم يصر إلى مايصير كل من يموت فاستمر وجوده غضاً طرياً كسائر الأحياء رغم موته وذلك كشأن المشيئة العليا غير المقيدة بالنظم والقوانين إذا توجهت لخرق النظم والنواميس .

وهذا نبي الإسلام - ﷺ - قد جاب بجسده وروحه الملكوت الأعلى ليلة المعراج على الصحيح ثم نزل على ما كان عليه قبل عروجه من غير خروج عن طبيعته البشرية .

ولعل هذا نموذج لهذه الأمة لتتصور على مداه عقيدة رفع عيسى بجسده وروحه ثم نزوله ومكثه على الأرض زمناً ثم يموت لأن كل حي إلى التراب يعود كما قال الله فى كتابه العزيز .

كما أن نزول عيسى من الملأ الأعلى فى آخر الزمان ليس بأغرب فى بابه من نزول جبريل - عليه السلام - فى صورة الأعرابي (دحية الكلبي) كما ورد فى حديث الايمان .

كما أنه ليس بأغرب ايضاً من نزول الملكين (هاروت وماروت) ببابل فى صورة إنسانين يعلمان الناس السحر فتنة واختبارا ورجوعهما كما كانا كما هو وارد فى سورة البقرة ، فهل هذا أغرب من ذاك ؟ أم أنه الإلف والعادة التى إذا خرقت وخالفت مألوفها أثار العقل كل شكوكه ووساوسه .

وما لنا وكل هذه المبررات.. أليس عيسى نفسه يعتبر معجزة الخلق فى خرق النواميس من حيث مولده وكلامه فى المهد وإحياؤه الموتى وشفاؤه المرضى بإذن الله ، وعلمه ببعض الغيب وقدرته على التغير والاختفاء بإذن الله ، إلى آخر ما أعطاه الله من خوارق جعلته فى عموم معجزة الأحياء التى تعجز العقول عن تكييف مظاهرها .

أفلا يكون رفعه حياً ونزوله فى آخر الزمان بتلك الحياة أمراً ميسوراً مألوفاً إلى جانب ماحياه الله به من نعم وفضائل (لا أترككم يتامى إنى آت إليكم (١) » وقوله (سمعتم أنى قلت لكم أنا أذهب ثم آتى إليكم) (٢) ،

ثم لماذا إنكار الدجال وهو عقيدة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - التى دان الله عليها .

فقد وردت الأحاديث بأنه رأى رجلا يدعى ابن صياد تنطبق عليه أوصاف الدجال التى وصفه الرسول بهاوسمعها منه عمر ، فهم عمر أن يقتله واستأذن الرسول فى ذلك ، ولكن الرسول ﷺ قال لعمر ناهياً « إن يكنه فلن تسلط عليه » - وفى رواية « فلست صاحبه » أى الذى يقتله، لأن صاحبه عيسى ابن مريم « وإلا يكنه فلا خير لك فى قتله » .

تعقيب :

فلعله قد وضح من كل هذه المرجحات أن عيسى — عليه السلام — رفع حياً بروحه وجسده وسينزل بهذه الحياة المستمرة الباقية يقتل الدجال فى آخر الزمان الذى سيفسد الأرض والعقائد ، حيث أن مناط ذلك كله مشيئة الإله القادر غير المقيدة بالنواميس الطبيعية وإن قيدت هى النواميس .

ولعل القارىء قد لمس التقارب .. بل ربما لمس الاتحاد الكامل بين ما قرره القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وبين ماجاء فى الإنجيل بشأن تحديد حلول الملكوت الذى وعد به المسيح فى كرازته ، وهتفت به بشارات الأنبياء لأن الجميع يخرج من مشكاة واحدة .

---

(١) يوحنا ١٤ : ١٨ .

(٢) يوحنا ١٤ : ٢٦ .

فإذا قال المسيح — عليه السلام — نهاية العالم قد اقتربت فتوبوا وآمنوا بالإنجيل ، وبعد ستمائة وعشر من السنين تقريباً يأتى محمد — ﷺ — ويتلو على مسامع العالمين قوله تعالى :

« اقتربت الساعة وانشق القمر »(١) فقد صادق القرآن الكريم على ماثبت صحيحا فى الإنجيل .

ويذهب كثير من المفسرين إلى أن ظهور محمد — ﷺ — من مذكرات الساعة وعلاماتها ، وذلك فى تفسير قوله تعالى : « يسئلونك عن الساعة أيان مرساها . فيم أنت من ذكراها »(٢) .

فالمعنى عند كثيرين أنهم لما سألوا عن وقت إقامتها وتكوينها وإثباتها ، قال الله سبحانه منكراً عليهم ذلك السؤال « فيم؟ » أى فيم هذا السؤال ؟ ثم استأنف معللا للإنكار مبطلا للسؤال فقال « أنت من ذكراها » أى إرسالك وأنت خاتم النبيين المبعوث فى نسيم الساعة علامة من علاماتها ودليل لهم على العلم بوقوعها عن قريب ، فحسبهم هذه المرتبة من العلم ، وإليه تعالى يرجع منتهى علمها « إلى ربك منتهاها »(٣) ، أى علمها بكنهها وتفاصيل أمرها ووقت وقوعها لا إلى أحد غيره ، وإنما وظيفتهم أن يعلموا باقترابها ومشارفتها وقد حصل لهم ذلك ببعثك المنذر بمجيء الساعة كما ينطق به قوله عليه الصلاة والسلام « بعثت أنا والساعة كهاتين إن كادت لتسبقنى » وقرن السبابة بالوسطى .

وهذا البيان من القرآن ومن السنة مصدق لما ثبت صحيحا فى الإنجيل مثل قوله :

---

(١) سورة القمر : ١ .

(٢) النازعات ٤٢، ٤٣ .

(٣) النازعات ٤٤ .

« اسهروا إذن لأنكم لاتعلمون فى أية ساعة يأتى ربكم ، واعلموا هذا أنه لو عرف رب البيت فى أى هزيع يأتى السارق لسهر ولم يدع بيته ينقب ، لذلك كونوا أنتم مستعدين لأنه فى ساعة لا تظنون يأتى ابن الإنسان »(١) «فاسهروا لأنكم لاتعرفون اليوم ولا الساعة التى يأتى فيها ابن الإنسان»(٢).

فالمسيح يحذر من مجيء الساعة بغتة من غير أن يتوقع الناس مجيئها فتأخذهم وهم فى لهوهم يعمهون «اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون»(٣) ويقول الله فى الذكر الحكيم « وما يدريك لعل الساعة قريب »(٤) « هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون »(٥) ولتحقق وقوعها القريب قال الله سبحانه « أتى أمر الله فلا تستعجلوه »(٦) فعبر عن إتيانها بصيغة الماضى (أتى) لتأكيد الوقوع وقرب وقته .

هذا ، والحديث عن الساعة طويل فى القرآن والإنجيل ، وليس هنا محل ذكر تفاصيلها ، لكن قضية خفاء وقتها مما اتفقت عليه الكتب الثلاثة (التوراة والإنجيل والقرآن) .

وقد يتساءل القارىء .. إذا كان المسيح يقول إن الساعة قريب وأنها تأتى بغتة، والقرآن الكريم قد صدق على ذلك ، فما هو وجه قربها وقد مضى قرابة الألفين من السنين ولم يأت ابن الإنسان فى ملكوته لتتبعه الرادفة فما نرى القريب هذا إلا أصبح بعيدا .

وفى وسعنا أن نجيب على ذلك بما علمنا الله على لسان رسله وأنبيائه ، فإن الله سبحانه جعل لنا زمن اليوم مقيسا بحركات الأفلاك ودوراتها مثل

---

(١) متى ٢٤ : ٤٢ – ٤٤ .
(٢) متى ٢٥ : ١٣ .
(٣) سورة الأنبياء : ١ .
(٤) سورة الشورى : ١٧ .
(٥) الزخرف : ٦٦
(٦) النحل : ١ .

الشمس والقمر والأرض وسائر الكواكب « الشمس والقمر بحسبان »(١) « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا »(٢) ومن دورات الأفلاك والكواكب يكور الله الليل على النهار ويكور النهار على الليل « خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى »(٣) :

ومن هذا يتحدد زمن اليوم فى علم البشر وحسابهم ، واليوم وحدة الشهر ، والشهر وحدة السنة ، ولكن ماهكذا يكون الحساب عند الله سبحانه وتعالى ، لأن الله لا يعتمد فى حساب اليوم على مسارات الأفلاك ودوراتها ، فإن اليوم عند الله يقدر بألف سنة من أيام دنيانا . يقول داود عليه السلام فى المزمور التسعين حيث يقول : لأن ألف سنة فى عينك مثل يوم أمس بعد ماعبر وكهزيع من الليل »(٤) ، ويقول بطرس رئيس الحواريين « إن يوما واحدا عند الله كألف سنة وألف سنة كيوم »(٥) وهذا القرآن يقرر أن مدة اليوم عند الله مثل ذلك فقال تعالى « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليـــه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون »(٦) بل إن اليوم الواحد عند الله قد يمتد إلى مثل خمسين ألف سنة زمنية من سنواتنا هذه . قال سبحانه « تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة »(٧) .

وإذن فما كان بين محمد والمسيح إلا بعض اليوم ، وما مضى من الزمن

---

(١) سورة الرحمن : ٥ .
(٢) سورة الإسراء : ١٢ .
(٣) سورة الزمر : ٥ .
(٤) مزمور ٩٠ : ٤ .
(٥) ٢ بطرس ٣ : ٨ .
(٦) سورة السجدة : ٥ .
(٧) سورة المعارج : ٤ .

بعد المسيح حتى الآن إلا يوم أو بعض يوم ، ومهما مضى من آلاف السنين بعد محمد والمسيح فلا تعدوا أن تكون فى حسبان الذات العلية إلا يوما أو بعض يوم أو أياما قلائل إذا بلغت الملايين من زماننا .

وبهذا التقدير الإلهى لا يكون الملكوت إلا على الأبواب لأن المنتهى قريب ، وكأن المسيح ينظر حلول الملكوت ويحس به قريبا وهم يحسبون كلامه فى ذلك أمرا مبهما وبعيدا . ولقد ظن مثل ذلك يهود الجزيرة العربية ، ولكن القرآن صحح وهمهم فقال «إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا . يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن »(١) .

وسواء فى ذلك عقيدة أهل اليقين أو عقيدة من يستبعد أن يكون عمر الكون العظيم الهائل مربوطا بعمر الإنسانية القصير على الأرض . . فإن الذى يعنينا هنا هو أن نهاية عالم هذا الإنسان الذى يعمر الكون قد اقتربت ، وليس لنا بعد أن نعلم ماذا يكون عليه أمر الكون بعد فناء الإنسان ، لأن هذا من اختصاص المشيئة العليا ، وهذا ما يلتقى فيه محمد والمسيح — عليهما الصلاة والسلام — هذا ويحسن بنا إكمالا لما سبق بحثه أن نسوق من الإنجيل ما يصور الظواهر الكونية قبيل النفخ فى الصور لنهاية الدنيا إيذانا بالحشر وبدء الآخرة ، لعل التقارب بين الرسالتين يتأكد ويزيد .

يقول الإنجيل بعد أن بين من مقدمات الساعة ما تقدم :

« فمتى نظرتم رجسة الخراب التى قال عنها دانيال النبى ... فحينئذ يهرب الذين فى اليهودية إلى الجبال والذى على السطح فلا ينزل ليأخذ من بيته شيئا ، والذى فى الحقل فلا يرجع إلى ورائه ليأخذ ثيابه ، وويل للحبالى والمرضعات فى تلك الأيام ، وصلوا لكيلا يكون هربكم فى شتاء ولا فى سبت لأنه يكون حينئذ ضيق عظيم لم يكن مثله منذ ابتداء العالم إلى الآن

---

(١) المعارج : ٦ ، ٧ .

ولن يكون ، ولولم تقصر تلك الأيام لم يخلص جسد ، ولكن لأجل المختارين تقصر تلك الأيام ، حينئذ إن قال لكم أحد هو ذا المسيح هنا أو هناك فلا تصدقوا ، لأنه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضا ، ها أنا قد سبقت وأخبرتكم ، فإن قالوا لكم ها هو فى البرية فلا تخرجوا ، ها هو فى المخادع فلا تصدقوا ، لأنه كما أن البرق يخرج من المشارق ويظهر إلى المغارب هكذا يكون أيضا مجىء ابن الإنسان . . .

وللوقت بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس والقمر لا يعطى ضوءه والنجوم تسقط من السماء وقوات السموات تتزعزع ، وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان فى السماء ، وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض ، ويبصرون ابن الإنسان آتياً على سحاب السماء بقوة ومجد كثير فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت فيجمعون مختاريه . . .

هكذا أنتم أيضا متى رأيتم هذا كله فاعلموا أنه قريب على الأبواب . . . وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا ملائكة السموات إلا أبى وحده ، وكما كانت أيام نوح كذلك يكون أيضا مجىء ابن الإنسان ، لأنه كما كانوا فى الأيام التى قبل الطوفان يأكلون ويشربون ويتزوجون ويزوجون إلى اليوم الذى دخل فيه نوح الفلك ، ولم يعلموا حتى جاء الطوفان وأخذ الجميع ، كذلك يكون أيضا مجىء ابن الإنسان ، حينئذ يكون اثنان فى الحقل يؤخذ الواحد ويترك الآخر ، اثنتان تطحنان على الرحى تؤخذ الواحدة وتترك الأخرى »(١) .

وكل الذى ورد فى الإنجيل من مشاهد القيامة هو بعض ما ذكر فى القرآن الكريم وهذه بعض آياته :

---

(١) متى ٢٤ : ١٥ — ٤١ .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد »(١) .

وقوله سبحانه : « اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم »(٢) .

وقول العزيز العليم « إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سيرت وإذا العشار عطلت وإذا الوحوش حشرت وإذا البحار سجرت وإذا النفوس زوجت . وإذا الموؤدة سئلت . بأى ذنب قتلت وإذا الصحف نشرت . وإذا السماء كشطت . وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلفت علمت نفس ما أحضرت »(٣) .

وقوله : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين . يغشى الناس هذا عذاب أليم »(٤) .

وقوله عز وجل : « اذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت . وإذا البحار فجرت . وإذا القبور بعثرت علمت نفس ماقدمت وأخرت »(٥) .

« والسماء ذات الرجع . والأرض ذات الصدع . إنه لقول فصل . وما هو بالهزل »(٦) .

وغير هذا كثير فى القرآن الكريم مما يفصل حال الناس فى القيامة ، وفيه التقاء بين صحيح الإنجيل ، وصريح القرآن الكريم .

---

(١) سورة الحج ١ ، ٢ .
(٢) سورة الأنبياء ١ ، ٣ .
(٣) سورة التكوير : ١ - ١٤ .
(٤) الدخان ١٠ ، ١١ .
(٥) الانفطار ١ - ٥ .
(٦) الطارق ١١ - ١٣ .

نهاية البداية

لقد أوغل بولس فى إخفاء مسيحية المسيح ومواراتها حتى بهتت صورتها تماما ، تلك الصورة النقية الطاهرة التى أتت بأصل ثابت وفرعها فى السماء ، لكنه اجتثها من فوق الأرض حتى لم يعدلها قرير يمكن ، وبذر مكانها بذوراً خبيثة طلعها كأنه رؤوس الشياطين ، بل هو رؤوس الشياطين ، فمسخ العقائد والتعاليم النصرانية التى أتى بها ابن الناصرة بعقائد وتعاليم طرسوسية جاهد من أجلها بولس الطرسوسى .

ولما رأى الأتباع والحواريون قوة عزم بولس وشدة إصراره على أن تسود مبادئه وتطبق فى غير هوادة ، تنصلوا منه وتخلوا عنه لأن دعوته غير مخلصة عند الله وأصحابها غير جديرين باستحقاق الملكوت .

ويشعر بولس بالألم لهذا الفراق ويبدى الندم على تركه وحيداً بين دعوته والتابعين له من الأمم ، يعبر عن انفعالاته تلك فى رسالته الثانية المشكوك فى نسبتها إليه والتى يخاطب فيها تيموثاوس يستغيث به أن يقف إلى جواره فيقول له : « أنت تعلم هذا أن جميع الذين فى آسيا ارتدوا عنى الذين منهم فيجلس وهو موجانس »(١) .

ثم يقول « بادر أن تجىء إلى سريعاً لأن ديماس قد تركنى إذ أحب العالم الحاضر وذهب إلى تسالونيكى وكريسكيس إلى غلاطية وتيطس إلى دلماطية ، لوقا وحده معى . . .

اسكندر النحاس أظهر لى شروراً كثيرة ليجازه الرب حسب أعماله

---

(١) ٢ تيموثاوس ١ : ١٥ .

فاحتفظ منه أنت أيضا لأنه قاوم أقوالنا جدا ، فى احتجاجى الأول لم يحضر أحد معى بل الجميع تركونى ..

ولكن الرب وقف معى ..

لكى تتم بى الكرازة ويسمع جميع الأمم فأنقذت من فم الأسد »(١) .

ثم يزيد فى إظهار لوعته من آلام التحدى له ولدعوته فيقول : « فإنى أنا الآن أسكب سكيبا ووقت إنحلالى قد حضر ، قد جاهدت الجهاد والحسن أكملت السعى حفظت الإيمان »(٢) .

وهكذا نجد أنه قد فارقه جميع أصدقائه إلا واحد منهم فقط ولم يبق له نصير إلا إيمانه بدعوته .

ولقد ذكرت لنا بعض الروايات التاريخية فى أثناء الحديث عن رحلاته التبشيرية أنه سجن مراراً فى سبيل هذه الدعوة ومع كونه بقى بلا صديق فهو أيضا ليس له من يؤنسه فى حياته من زوجة أو ولد ، فقد عاش حياته بلا زوجة كما هو المأثور فى روايات بعض رسائله .

أما إيمانه بعودة المسيح فقد عاش مؤملا هذه العودة فى حياته كما كان يأملها غيره من الأتباع فكتب إلى أهل فيلبى يقول « ننتظر مخلصا هو الرب يسوع المسيح(٣) ، .. الرب قريب »(٤) .

وقال لأهل كورنثوس : « أيها الإخوة الوقت منذ الآن مقصر لكى يكون الذين لهم نساء كأن ليس لهم ، والذين يبكون كأنهم لا يبكون ، والذين

---

(١) ٢ تيموثاوس ٤ : ٩ — ١٧ .

(٢) ٢ تيموثاوس ٤ : ٦ ، ٧

(٣) فيلبى ٣ : ٢٠ .

(٤) فيلبى ٤ : ٥ .

يفرحون كأنهم لا يفرحون، والذين يشترون كأنهم لا يملكون .، لأن هيئة هذا العالم تزول »(١) .

لكننا نرى إيمانه يتزعزع بعقيدة عودة المسيح ويلوم أهل تسالونيكى على إهمالهم شئون العالم الحاضر انتظارا لقرب مجىء المسيح فيقول (لا يأتى إن لم يأت الارتداد أولا ويستعلن إنسان الخطيئة (الشيطان) مظهرا نفسه أنه إله) ولعل هذا المعنى يوحى باستعلاء الدجال قبيل نهاية العالم . وهو فى رسائله الأخيرة يبدى يأسه من هذه العودة ويحاول أن يوفق يقينه بعودة المسيح وبين يأسه من تلك العودة الثانية فيضع لنفسه أملا فى أن يراه بعد الموت فكأنه استبدل الأمل فى الاتحاد بالمسيح بعد الموت بعقيدته الأولى وهى عودة المسيح إلى هذه الأرض. أما نهاية حياته فكانت بسبب تهمة وجهت إليه مع زملاء له فى تسالونيكى وهى أنهم كانوا يعملون ضد النظام الحاكم ، أى ضد قيصر قائلين : إنه يوجد ملك آخر هو يسوع المسيح ، وهى تهمة تصور جريمة ليس لها عقاب أقل من الموت صلبا ، وتؤكد الروايات التاريخية أنه قتل مصلوبا فى روما فى عهد نيرون بعد حريق عام ٦٤ م ، ولما كان وقت صلبه اختار أن يصلب منكسا حتى لا يتشبه بصلب سيده المسيح .

وقد شيدوا له ضريحا فى القرن الثالث الميلادى على طريق أستيا حيث يفتقد رجال الدين المسيحى أنه أسلم الروح فيه . وهذا الضريح جدد مرات ومرات حتى صار إلى حالته التى هو مشهور بها الآن فى روما .

وأخيرا استطاع بولس بصبره وجلده أمام النوازل التى لاقاها فى سبيل دعوته أن يمزج مبادىء اليهود الأخلاقية ذات القوة والصرامه بعقائد اليونان فيما وراء الطبيعة ، ولم يخرج من الدنيا إلا وقد وضع أمورا جديرة بالذكر منها :

---

(١) ١ كورنثوس ٧ : ٢٩ - ٣١ .

١ — تصوير الحشر بفكرة جديدة استوعبت تصورات العقائد الأخرى .

٢ — أنه أحل العقيدة محل العمل فى اختيار الله لمتقيه .

يقول ول ديورانت : لم يشعر معاصرو بولس فى التو واللحظة بأثره لأن الجماعات التى أنشأها كانت أشبه بجزائر صغرى فى بحر الوثنية الواسع الخضم ، ولأن كنيسة روما كانت من صنع بطرس وبقيت وفية لذكراه ، ومن أجل هذا ظل بولس مائة عام كاملة ، بعد موته لا يكاد يذكره إنسان ، فلما انقضت الأجيال الأولى من المسيحيين ، وأخذت أحاديث الرسل الشفهية تضعف ذكراها فى الأذهان ، وأخذ العقل المسيحى يضطرب بمئات العقائد الزائفة بالضلال ، لما حدث هذا أصبحت رسائل بولس إطاراً لمجموعة من العقائد . . : ألفت منها كنيسة قوية ومع هذا كله بقى الرجل الذى فصل المسيحية عن اليهودية من حيث الجوهر والأساس يهودياً فى قوة خلقه وصرامة مبادئه . ولما جعل (مارتن لوثر) بولس رسول الإصلاح الدينى كانت البروتستينية نصراً لبولس على بطرس وكان الاعتقاد بأن النجاة إنما تكون بالإيمان والعقيدة نصراً لبولس على المسيح(١) .

---

(١) قصة الحضارة جـ٣ م٣ ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

ثبت بأهم مراجع الكتاب

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ العهد القديم

٣ ـ العهد الجديد

٤ ـ السنة النبوية

٥ ـ الآراء الدينية والفلسفية لفيلون الإسكندرى إميل بريهييه
ترجمة د. محمد يوسف موسى وعبد الحليم النجار

٦ ـ التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق لابن بطريق

٧ ـ الديانة اليونانية القديمة هـ. ج. روز ترجمة محمد سليم سالم

٨ ـ العقل والإيمان فورمن أندرسون النيل المسيحية

٩ ـ الغنى ح. ف. رذر فورد الولايات المتحدة

١٠ ـ الله بين الفلسفة والمسيحية عوض سمعا

١١ ـ أنوار الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل
رفاعة الطهطاوى

١٢ ـ الهيلينية فى مصر سير هارولد إدريس بل

١٣ ـ عقيدة التجسد سلسلة دراسات لاهوتية عن
الكنيسة القبطية

١٤ ـ قيامة المسيح عوض سمعان. دار التأليف الأسقفية

١٥ ـ معاجم اللغة

١٦ ـ قصة الحضارة — ول ديورانت
١٧ ـ نشأة المسيحية وتطورها — شارل جينيبير
ترجمة د. عبد الحليم محمود
١٨ ـ نظرات استشراقية فى الإسلام — د. محمد غلاب
١٩ ـ هل المسيح هو الله — القس لبيب ميخائيل : التجارية بمصر

فهرس موضوعات الكتاب